الإنضباط والطاعة

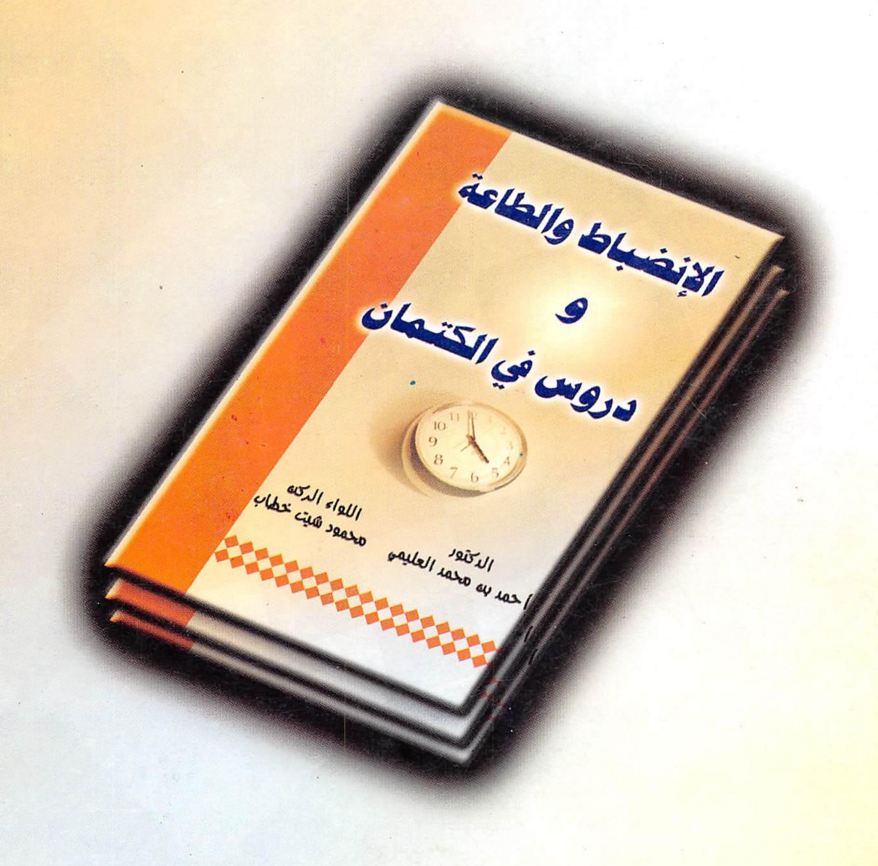
و

دروس في الكتمان



الدكتور
أحمد بن محمد العليمي

اللواء الركن
محمود شيت خطاب


الإنضباط والطاعة
و
دروس في الكتمان
اللواء الركن
محمود شيت خطاب
الدكتور
أحمد بن محمد العليمي

الانضباط والطاعة

وأثرهما التربوي

الدكتور
أحمد بن محمد العليمي

الإهداء

إلى سالكي طريق التربية والهداية، إلى قدوات طريق الإيمان، أهدي لكم هذا الجهد قائلاً:

«لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ، أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ»(١).

فإلى المزيد من الانضباط والطاعة، رغم طول الطريق، وقلة السالكين، وعقبات الأداء.

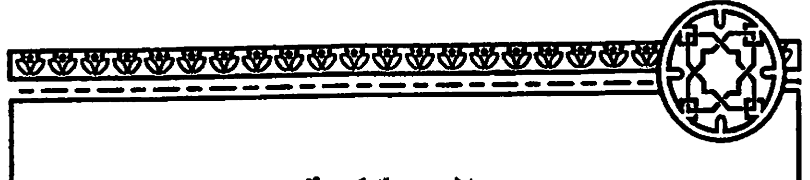
فلأن تلقوا الله تعالى على ذلك، خير من أن تلقوه على ما سواه.

والله يتولى الصالحين.

المؤلف

---

(١) أخرجه البخاري ٢٥٣/١ (ح/٦٨٥) ومسلم ٣٢٤/١ (ح/٤٣٦).



المقدّمة

الحمد لله الهادي إلى سبيله، هدانا إلى الإسلام، واصطفانا واختارنا لتبليغ رسالة الإسلام، ودعوة الأنام، فلله الفضل والمنة، نشكره ولا نكفره، وندعوه ولا نجحده، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ثبتنا على طريقك، وألهمنا رشدنا، واجعل طاعتك منهجنا، والسير على طريق رسولك ﷺ مقصدنا، واشغلنا بما خلقتنا له، ولا تشغلنا بما خلقته لنا، سبحانك ربنا لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، فلك الحمد وجزيل الثناء. يا مولانا يا الله.

والصلاة والسلام على رسولنا سيدنا محمد بن عبدالله ﷺ القائل: «**مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي**»[1] وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذه نبذ في موضوع الانضباط والطاعة، قصدت بها بيان مفهوم مصطلح الانضباط والطاعة في الإسلام، مُركِّزاً على طاعة

---

(١) أخرجه البخاري ٢٦١١/٦ (ح/٦٧١٨) ومسلم ١٤٦٦/٣ (ح/١٨٣٥ ـ ٣٤١٧).

العلماء والمربين، حيث فقد هذا المفهوم دلالاته عند كثير من المسلمين. فهم بين مفرط ومغال ومقتصد فيه.

فقوم بالغوا فيه، فكانت الطاعة عندهم المبالغة في الانصياع والتسليم للحق والباطل، أدّى بهم أن يأخذوا مفاتيح الجنة من علمائهم في شكل مشابه لظاهرة صكوك الغفران التي قدمها الكهنوت للأتباع عند النصارى، فعلماؤهم معصومون، وأقوالهم مقدسة، وأعمالهم مسلَّمة ومقبولة. في طاعة عمياء لا ينبغي لأحد أن يسأل لماذا؟

وقوم ولّوا الأدبار فلم يطيعوا أمراً، ولم يسألوا مذكراً، ولم يقتدوا بعالم، بل نظروا إلى علمائهم ودعاتهم نظرة الإساءة والتنقيص، فابتعدوا عن العلم والعلماء. بل كادوا أن يقولوا عن علمائهم ﴿... أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[1].

وقوم رأوا الطاعة والانضباط قاصرين إلا فيما يرون، والالتزام فيما عليه يوافقون، فساروا على وفق اجتهادهم وإن اختلف مع أبسط قواعد الاجتهاد أو العمل الجماعي التربوي.

والطاعة والانضباط أصلان من أصول الإسلام لا يقبل إسلام أحد إلا بهما. حيث أن أركان الإسلام انضباط وطاعة، فإذا حدث الخلل فيهما حصل عدم الإسلام وسيأتي ما يؤكد هذا المعنى ويقرره أثناء الكتاب.

ولكني أذكر هنا قصة مهندس طُرُقٍ غربي أسلم في اليمن، فسُئل عن سبب إسلامه فأجاب:

كنت مسؤولاً عن مخيم لعمال الطرق في مناطق القبائل

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٢.

البدائية فطلبت من العمال أن ينتظموا في ذهابهم لتناول الطعام، وألا يتزاحموا عند أخذه، فلم يستجب لي أحد.

ثم طلبت منهم الانتظام عند صعود السيارات للذهاب إلى مواقع العمل أو العودة منها، فلم يستجب أحد، حاولت أن يقفوا صفاً عند استلامهم للرواتب عند نهاية الأسبوع حتى يتمكنوا من التوقيع أو البصم على كشوفات الأسماء، فطلبوا الفلوس وأجلوا التوقيع إلى بداية الأسبوع يوم السبت، فلم أفلح في تنظيمهم وضبطهم.

إلا أني كنت أراهم في كل يوم عدة مرات يقفون صفاً مستقيماً ويقف أحدهم أمامهم، فلا يفعلون أي حركة إلا إذا فعل، في انضباط تام، ونظام دقيق، وطاعة مطلقة لمن يتقدمهم.

فقلت لهم: ها أنتم هؤلاء منضبطين.

فقالوا: هذه صلاة.

فبدأت أسألهم عن الصلاة فأخبروني بها، وأنها ركن من أركان الإسلام.

فقلت «والله إن الدين الذي قدر على أن ينظمكم يا فوضويون إنه لدين الحق».

فبحثت عن الدين الإسلامي، فهداني الله له، وكان ذلك سبب إسلامي.

إن واقعنا اليوم لا يمكن أن تسير فيه الدعوة والتربية إلا بالانضباط والطاعة والتوافق التام في تحديد الأهداف، وإن تعددت الوسائل.

وما دام العاملون للإسلام من الدعاة إلى الله تتقاذفهم

اجتهادات لا توحد صفهم، ولا تجمع كلمتهم، ولا تُعطي للانضباط والطاعة لبعضهم على بعض أي معنى، ولا يوحدهم هدف، فإن عراقيل الطريق ستعوق مسيرتهم، وعقبات المشكلات ستستنزف طاقتهم، وسيجد الأعداء منفذاً لاختراقهم.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

فلا بد من طاعة مبصرة مدركة أن الهدف الأسمى لا بد له من تخلص من أخلاق سوء مدمرة، ومن حظوظ نفس متطلعة إلى قيادة وإمرة لا يرضى أصحابها أو كثير منهم بأن يُقادون، بل أن يُنصحوا بما يفيد مسيرة الطاعة في الإسلام ودعوته. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

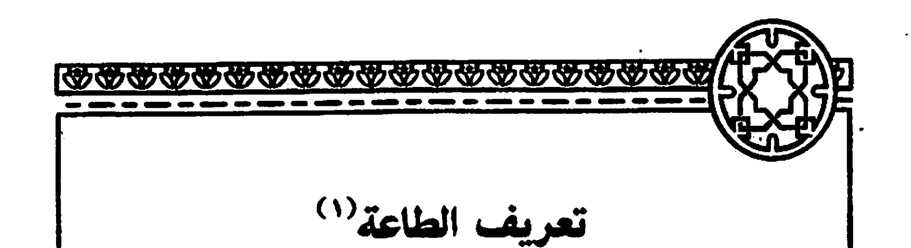
إن هذا البحث إشارات وإيماءات لتوضيح هذا المفهوم وبيان أساليب تحققه، وفوائده وثمراته، وعوائقه ومدمراته ومخاطر الوقوع فيها، رجوت به فهماً سليماً مُدركاً، وتطبيقاً واقعياً ملتزماً، وعودة وأوبة مرتجاة لمن شذَّ أو تجاوز أو انكفأ على ذاته ونفسه.

وإني لأتقدم بالشكر لكل من ساعدني ودلني على فائدة أتمت هذا البحث. وأسأل الله العلي العظيم أن يهدي قلوبنا لطاعته، ونعوذ بالله من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، تولنا يا مولانا إنك على كل شيء قدير. والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله، وهو حسبنا ونعم الوكيل، والحمد لله رب العالمين.

المؤلف

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.



تعريف الطاعة[1]

في اللغة: الانقياد والموافقة.

«ولا تكون الطاعة إلا عن أمر «كما أن الجواب لا يكون إلا عن قول»[2].

وفي الاصطلاح: موافقة الأمر طوعاً.

أو هي: فعل المأمورات ولو ندباً، وترك المنهيات ولو كراهة[3].

أو هي: الإتيان بالمأمور به، والانتهاء عن المنهي عنه والعصيان بخلافه[4].

---

(١) الفرق بين الطاعة والعبادة:
الطاعة أعم من العبادة لأن العبادة غلب استعمالها في تعظيم الله غاية التعظيم، والطاعة تستعمل لموافقة أمر الله، وأمر غيره. فالعبادة لا تكون إلا لله، أما الطاعة فتكون له ولغيره. انظر نظرة النعيم ٢٦٧٤/٧ والموسوعة الفقهية الكويتية ٣٢٠/٢٨.

(٢) لسان العرب ٢٤١/٨ والمصباح المنير مادة طوع /٨١.

(٣) التعريفات للجرجاني/١٢٢ والموسوعة ٣١٩/٢٨ وانظر الكليات للكفوي ١٥٥/٣ - ١٥٦.

(٤) فتح الباري ١٢/١٣ قاله ابن حجر.

وقال ابن علان: هي: الامتثال ظاهراً، أو الرضا باطناً لحكم الله ورسوله ﷺ وما يقوله من دعا إلى ذلك[1].

وفي الاصطلاح الدعوي:

«عمل المطلوب في الوقت الذي ينبغي أن يُعمل فيه».

أو «عمل الشيء في الوقت الذي ينبغي أن يُعمل فيه سواء أعجب المنفذين أم لم يعجبهم».

أو «امتثال الأمر وإنفاذه توا في العسر واليسر والمنشط والمكره» وقد ورد هذا في بيعة العقبة الثانية واضحاً بيناً.

ويرد في تفصيل هذا المعنى الدعوي ما يلي[2]:

أولاً ـ الوفاء بما حواه عقد الانضباط والطاعة:

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾[4].

---

(١) دليل الفالحين ٢/٤٣٠.

(٢) البيعة أحكام ومضامين/ للدكتور عبدالله الوشلي /١٠٨ ـ ١١٠ ـ بتصرف ـ.

(٣) سورة النحل، الآية: ٩١.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٣٤.

ثانياً ـ الجهاد المتواصل والعمل الدؤوب:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾[1].

ثالثاً ـ عدم النقض إلا بمبرر شرعي:

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ خَلَعَ يَداً مِنْ طَاعَةٍ، لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[2].

رابعاً ـ الإخلاص في الولاء المقتضي للمحبة والنصرة، وربط المصير بالمصير، وعدم إفشاء الأسرار:

ويتتج عن هذا أربعة أمور:

١ ـ أن يعمل قدر وسعه وطاقته:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾[3].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٢) أخرجه مسلم ١٤٧٨/٣ (ح/١٨٥١) والمبرر إمّا الكفر البواح أو عدم القدرة بالعجز عن الوفاء.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٤٢.

٢ ـ أن يكون الالتزام مهمة عُمر وصُحبة حياة:

قال الصحابة رضوان الله عليهم ليلة العقبة «لا نقيل ولا نستقيل».

٣ ـ أن يكون الالتزام جاداً يُقَدَّم من خلاله الجهد والبذل والعطاء:

«فبيعة الرضوان في الحديبية كانت على عدم الفرار حتى الموت، وقال لهم رسول الله ﷺ: **«أنتم خير أهل الأرض»**[1].

٤ ـ أن يصاحب العمل المراقبة لله:

وذلك بالمتابعة والتذكير والتعاون، وحتى تصبح الأخطاء مدرسة تُقومُ وتُوجه على أساس منهج الله، ومن خلال موازنة أمينة.

«وقد يبدو للمنفذ أحياناً أن الأمر المطلوب منه تنفيذه ليس له مبررات أو دوافع.

فلا يجوز أن يكون ذلك سبباً في عدم تنفيذ الأمر وطاعته، فالإدارة مسؤولة أولاً، وهي عادة أكثر علماً بالظروف المحيطة، والدوافع والمبررات بما لا يتوفر لكثير من الأفراد، وفي ظل الشورى والنصيحة للأفراد فلهم أن يبدوا آراءهم.

وحينما تنتهي المؤسسة إلى رأي على الجميع الالتزام به، توحيداً للكلمة والتوجيه، ولا يجوز لصاحب الرأي المخالف أن يتحدث بعد ذلك عن رأيه داخل المؤسسة ـ وخارج المؤسسة من باب أولى ـ حتى لو أثبتت التجربة أن رأيه الذي لم يؤخذ به كان

---

(١) أخرجه البخاري ١٥٢٦/٤ (ح/٣٩٢٦ ـ ٣٩٢٣).

أصوب. فلأن تجتمع الكلمة على الصواب خير من أن يتفرق الناس حول الأصوب، ففي الاجتماع على الصواب يُمكن أن نصل إلى الأصوب، أما لو حدث الافتراق فلن يكون هناك اجتماع على صواب، ولا على أصوب»[1].

ودليل هذه المسألة:

مشورة الخروج من المدينة إلى أحد[2].

فقد وردت في السيرة كالتالي:

علم المسلمون باستعداد قريش وتحركها من مكة فكانت المشورة حيث استشار النبي ﷺ أصحابه في الموقف. وما الذي ينبغي فعله أمام الخطر القائم القادم؟ وكان أصحاب النبي ﷺ أمام هذه المشورة صنفين:

الأول: متحمس للخروج لملاقاة العدو والبروز له خارج المدينة، وإظهار الشجاعة والإقدام أمام الأعداء والرغبة في حصول الشهادة والأجر وخاصة ممن فاتتهم غزوة بدر..

الثاني: صنف رأى من خلال اجتهاده أن يستفيد من الإمكانات والطاقات المتوفرة في داخل المدينة، وأن يبقوا فيها فلا يخرجوا لملاقاة العدو إلى خارجها، والإفادة من حصون المدينة.

«وكانت المدينة قد شبكت بالبنيان فهي كالحصن»[3] يقلل من الخسائر في صفوف المدافعين، ويوقع أعظم الخسائر في

---

(١) نظرات في رسالة التعاليم /٢٧٤ محمد الخطيب.

(٢) دروس في السيرة النبوية وعبرها /١٦٨ للمؤلف.

(٣) المصنف ٣٦٣/٥، للحافظ أبي بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني، بتحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي.

صفوف المهاجمين. والإفادة أيضاً من جهد من لا يقدر على البروز خارج المدينة كالنساء والأطفال، فيرمون العدو بالحجارة من رؤوس المنازل.

وكان النبي ﷺ مع الرأي الاجتهادي الثاني إلا أن الشورى منهج إسلامي ملزم حيث انطلق النبي ﷺ فلبس لامته[1].

وقد تلاوم الصحابة رضوان الله عليهم وقالوا: لعلّنا أكرهنا النبي ﷺ على أمر لا يريده فاعتذروا له قائلين: «أمرنا لأمرك تبع». فإذا به ﷺ يقول لهم في غير تردد: **«إنه ليس لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يناجز عدوه»**[2].

وخرج المسلمون إلى ميدان معركة أحد وحدث ما حدث، ولم يتمسك برأيه بعد الشورى ويتشبث به ويُندِّم المسلمين إلا المنافقون. فقالوا: «قال عبدالله بن أبي عند رجوعه من الطريق: أخذ برأي غيري، ولم يأخذ برأي».

وأخبر الله تعالى عن قول المنافقين.

فقال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾[3].

وقال تعالى أيضاً عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾[4].

---

(١) اللامة: الدرع الحصينة، وسائر أداة الحرب.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ١٢٨/٢ وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦٧.

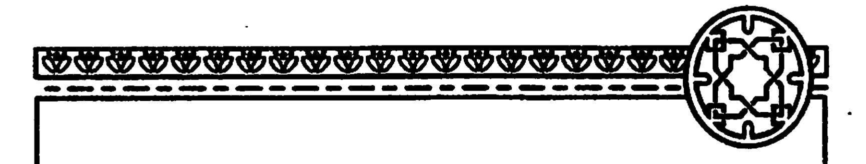
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٦٨.

وهو سلوك غيرسوي ينم عن نفس ملتوية، تجلب الشك فيها وفي إخلاصها، وقد تدفع العاملين معها إلى استبعادها لما يظنونه من مشاركتها ولو نفسياً في الخلل الذي حدث، أو الهزيمة التي وقعت. ولذا فإن النبي ﷺ لم يسمح لمن لم يحضر غزوة أحد بالخروج في اليوم التالي إلى حمراء الأسد.

قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾[1].

* * *

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٩.



تعريف الانضباط[1]

هو: «مقاربة تنفيذ العامل لجزئية عمل مستطاعة بعينها مطلوبة منه، خلال وقت محدد، وضمن الحفاظ على العمل».

شرح التعريف:

المقاربة: أي محاولة العامل التجويد ما أمكن، متطلعاً إلى التنفيذ الكامل، حيث أن الفعل له صور متعددة بحسب القدرة على فعله يمكن أن يُطلق على بعضها أنها فعل، بينما الترك شيء واحد لا يتجزأ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّما هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»**[2].

---

(١) بحث «الانضباط الإداري» مخطوط للجابري.

(٢) أخرجه البخاري ٢٦٥٨/٦ (ح/٦٨٥٨) ومسلم ٩٧٥/٢ (ح/١٣٣٧).

وعَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا، واعْلمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلاَةَ، وَلاَ يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إلاَّ مُؤْمِنٌ**»[1].

قال ابن القيم رحمه الله: «وأخبر في حديث ثوبان: أنهم لا يطيقونها، فنقلهم إلى المقاربة، وهي: أن يقربوا من الاستقامة حسب طاقتهم، كالذي يرمي إلى الغرض، فإن لم يصبه يقاربه»[2].

جزئية العمل: أي قطعة محددة الأبعاد، واضحة المعالم، ضمن الخطة العامة للعمل، إذ لا يتصور أن يوجد عمل بدون خطة وبرنامج تنفيذ.

الاستطاعة: وهذا شرط حاسم في التكاليف ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[3] وخبرة البشر تقول: إذا أردت أن تُطاع فأمر بما يُستطاع. والتحميل فوق الطاقة مدعاة لأن ينفرط الانضباط والطاعة.

بعينها مطلوبة منه: أي لا يجتهد فهو مأمور بتنفيذ ما كُلف به «فلا اجتهاد في موضع النص» إذ أن الاجتهاد الشرعي مع ورود الدليل الصحيح الصريح مردود.

وفي الدعوة والتربية تكون خطة العمل المتفق عليها،

---

(١) أخرجه ابن ماجه ١/١٠١ ـ ١٠٢ (ح/٢٧٧) انظر صحيح ابن ماجه ١/٥١ (ح/٢٢٤).

(٢) تهذيب المدارج /٣٣٢.

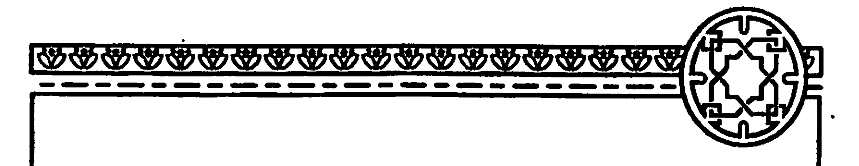
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

والقرار بمثابة النص الشرعي لا يجوز العدول عنه أو الاجتهاد فيه بتغييره، لأن التوافق تم على ذلك.

خلال وقت محدد: فالمؤدي للعمل قبل الوقت المطلوب كالذي يقطف الثمار قبل نضجها، والذي يؤدي العمل بعد وقته يكون متهاوناً كالذي يقطف الثمار بعد تلفها بعد النضج. والتقدم على الصف مثل التأخر عنه، والمفروض في المسلم الاستواء.

ضمن الحفاظ على العمل: فمهما بلغ إتقان أي جزئية فلا بد أن يكون ذلك في توازن مع الجزئيات الأخرى، وإلا ضاعت الجزئيات الأخرى وتقزمت وضعفت، وبذلك تضيع الأولويات، ويختل الشمول الذي يميز عن الآخرين.





أهمية الطاعة والانضباط

الطاعة والانضباط ناموسان إلهيان فطرت عليهما الخلائق كلها، من حيوان، ونبات، وجماد في السماء والأرض، فلم تبق ذرة في الأرض إلا وقد أذعنت لربها وخضعت بحيث تسير وفق إرادة إلهية كونية لا تختلف عنها أبداً. فالكون خاضع ومستسلم له تعالى وهو بهذا المعنى طائع لله تعالى.

قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾[2].

غير أن الثقلين الإنس والجن منحهما الله سبحانه إرادة وقوة بهما يستطيعان التصرف والاختيار للخير أو للشر. وبسبب ذلك تمرد كثير من الثقلين عن التزام الطاعة المطلقة القائمة على الاختيار، ولكنهم لا يدركون أنهم بالرغم من هذا التمرد يتحركون وفق إرادة كونية محيطة ضمن ملك الله تعالى وملكوته.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨٣.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١٥.

قال بعض أهل التفسير: «إن الله تعالى خلق الخلق على ما أراد منهم، فمنهم الحسن ومنهم القبيح، والطويل والقصير، والصحيح والمريض، وكلهم منقادون اضطراراً، فالصحيح منقاد طائع محب لذلك، والمريض منقاد خاضع وإن كان كارهاً.

والطوع: الانقياد والاتباع بسهولة.

والكره: ما كان بمشقة وإباء من النفس»[1].

ولهذا خلق الله سبحانه البشر متفاوتين في عقولهم ومواهبهم وقدراتهم وأخلاقهم، وذلك لتنتظم الحياة بالتعاون والتناصر وفق قاموس الطاعة.

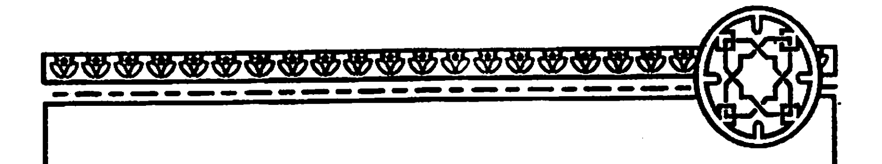
ومن هنا شُرعت طاعة الوالدين، وطاعة الزوجة لزوجها، وطاعة التلميذ لأستاذه، وطاعة العلماء والقادة في الميدان، وطاعة الحاكم والقاضي في الأمر.

إذ بغير السمع والطاعة لا يمكن الضبط والربط، كما لا يمكن أن يكون هناك نظام، بل الاضطراب الذي لا استقرار معه هو الغالب على مجريات الأمور والأحداث.



---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٢٧/٤ ـ القرطبي ـ.



المسلم والطاعة

«والمسلمون منذ نشأتهم يتربون على السمع والطاعة في المنشط والمكره، والعسر واليسر.

فليس للمسلم قط أن يتردد في أمر صدر له من الله ورسوله ﷺ.

ولا يكون السمع والطاعة فيما تحبه النفس وترغب فيه فقط، ولكن السمع والطاعة المطلقة في كل ما يحب الإنسان أو يكره، وفيما هو سهل ميسر أو شاق عسير.

والسمع والطاعة لا يكونان لوجاهة الأمير، أو الخوف منه، وإنما السمع والطاعة لكل أمير يلي أمر المسلمين ما دام يقودهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وليست الطاعة إلا في المعروف، فأيما أمير أمر بمعصية فهو غير مطاع.

وليست الطاعة عمياء، بل هي طاعة مبصرة ورشيدة تصدر عن اقتناع وبصيرة. فأيما أمير حاول زج جماعة في أمر لا يتفق مع قواعد الشرع والعقل فأمره مردود عليه.

وهكذا ربَّى الإسلام جنوده تربية رشيدة حكيمة تؤدي فيها القيادة واجبها وتمارس حقوقها، فليس قائد المسلمين بالمستبد المتغطرس، ولا هو بالجائر المتكبر، ولكنه العادل الشفيق المتواضع الرفيق، يحنو على جنوده، ويعطف عليهم، يدفعهم إلى ذلك شعور بالواجب، وعاطفة نبيلة تجعله يشعر أنه أب لصغيرهم، وأخ لكبيرهم.

وليس الجنود عاقين متمردين، ولا منتهزين متربصين، ولكنهم أبرار مطيعون، بواسل مضحون، يدفعهم إلى ذلك إيمان عميق، وعقيدة راسخة، وشعور دفاق يحدب القيادة عليهم، وحرصها على مصالحهم.

وإذا كانت القيادة من هذا الطراز الفذ، وكان الجنود على هذه الشاكلة الفريدة، يتم التجاوب، ويسود الوفاق، وعندئذ تأمر القيادة فيطيع الجنود، وتهتف فيلبون، وتخطط وهم ينفذون»[1].

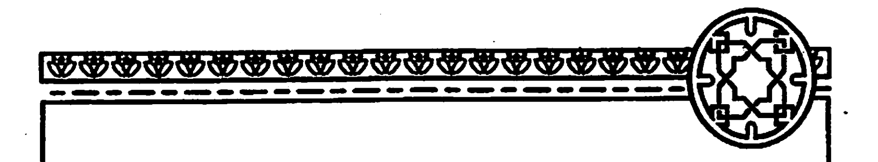
ولهذا لما سُئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه من أحد جنوده لماذا اختلف الناس عليك ولم يطيعوك بينما كانوا يطيعون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما؟

قال للسائل: لأني كنت وأمثالي من جنودهما، وأنت وأمثالك من جنودي. ـ أو كما قال رضي الله عنه ـ.



---

(١) القيادة والجندية في الإسلام /١٧٢ ـ ١٧٥ الدكتور محمد الوكيل ط/ دار الوفاء مصر.



هدف الطاعة والانضباط

وهدف الطاعة اجتماع الكلمة ووحدة الصف لأن خلاف ذلك فرقة وخلاف مدعاة للفشل وتسليط العدو.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

يقول ابن تيمية رحمه الله: «وهذا التفريق الذي حصل من الأمة: علمائها ومشائخها وأمرائها وكبرائها، هو الذي أوجب تسليط الأعداء عليها، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله ﷺ فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا، فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب»[2].

«إن واحداً من أهداف الأعداء في محاربة الدعوة الإسلامية هو: مضاعفة الجهود المبذولة في سياسة العمل الدائم على فقدان الثقة بينهم وتحطيم وحدتهم بشتى الوسائل. وهل العصيان وعدم

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

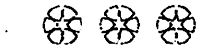
(٢) الفتاوى ٤١٩/٣ ـ ٤٢٠.

الطاعة وفلسفة المواقف الشاذة إلا تحقيقاً لهذا الهدف»[١].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«إِذَا كَانَ ثَلاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ»** قَالَ نَافِعٌ فَقُلْنَا لِأَبِي سَلَمَةَ فَأَنْتَ أَمِيرُنَا[٢].

قال ابن تيمية «إذا كان الرسول ﷺ قد أوجب الإمارة في أقل الجماعات وأقصر الاجتماعات أن يُولى أحدهم، كان هذا تنبيهاً على وجوب ذلك فيما هو أكثر من ذلك»[٣].

«فهذا الكلام من فقيه متحرك بفقهه، ورائد من رواد الدعوة، يبين لنا أهمية الإمارة لكل جماعة، وإن كانت في اجتماع عارض، إذ مقصود الإمارة تحقيق طاعة الله ورسوله ﷺ وتنفيذ أوامره، وفي ذلك جريان أمور المجتمعين على نسق واحد، ورأي واحد، ولا يتحقق هذا المقصود إلا بطاعة الجماعة للرئيس عند اختلاف الآراء، وإلا لم يكن للإمرة معنى ولا فائدة»[٤].

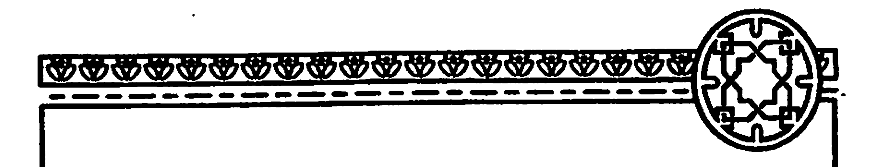


(١) نظرات في واقع الدعوة والدعاة /٨٤ ـ الطحان ط/ الكويت.

(٢) أخرجه أبو داود ٨١/٣ (ح/٢٦٠٨) وهو صحيح، انظر صحيح الجامع الصغير /٥١٩ وفي رواية **«لا يحل لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة إلا أمَّروا عليهم أحدهم»** أخرجه أحمد ١٧٦/٢.

(٣) الفتاوى ٣٩١/٢٨.

(٤) ممرات الحق ١١٨/٢.



الأدلة على لزوم الانضباط والطاعة

الأدلة من القرآن:

ما من رسول من الرسل إلا وقد طالب قومه بأمرين: التقوى والطاعة. قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾[4].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٠٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣٢.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٩٢.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾[١].

الأدلة من السنة المطهرة:

عَنْ عَبْدِاللَّهِ بن عمر رَضِي اللَّهُ عَنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلا سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ**»[٢].

وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ جَيْشاً وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً فَأَوْقَدَ نَاراً، وَقَالَ ادْخُلُوهَا فَأَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا. وَقَالَ آخَرُونَ إِنَّمَا فرَرْنَا مِنْهَا فَذَكَرُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ. فَقَالَ لِلَّذِينَ أَرَدُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا: «**لَوْ دَخَلُوهَا لَمْ يَزَالُوا فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**» وَقَالَ لِلآخَرِينَ: «**لاَ طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةٍ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**»[٣].

وعَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ قَالَ دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه وَهُوَ مَرِيضٌ قُلْنَا أَصْلَحَكَ اللَّهُ حَدِّثْ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ إِلاَّ أَنْ تَرَوْا كُفْراً بَوَاحاً عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[٤].

---

(١) سورة النور، الآية: ٥١.

(٢) أخرجه البخاري ٢٦١٢/٦ (ح/٦٧٢٥) ومسلم ١٤٦٩/٣ (ح/١٨٣٩).

(٣) أخرجه البخاري ١٥٧٧/٤ (ح/٤٠٨٥) ومسلم ١٤٦٩/٣ (ح/١٨٤٠).

(٤) أخرجه البخاري ٢٥٨٨/٦ (ح/٦٦٤٧) ومسلم ١٤٧٠/٣ (ح/١٧٠٩).

وأثره: أي استئثار، أو اختصاص بأمور دينوية يؤثرون بها غيركم. إرشاد الساري ١٦٨/١٠.

وَعَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ كُنَّا إِذا بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ يَقُولُ لَنَا: **«فِيمَا اسْتَطَعْتُمْ»**[1].

وعن عَبْدُاللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما ـ في حديث طويل وفيه ـ عن النبي ﷺ: «... **وَمَنْ بَايَعَ إِمَاماً فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ»**[2].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي»**[3].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«عَلَيْكَ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ»**[4].

وَعَنْ يَحْيَى بْنِ حُصَيْنٍ عَنْ جَدَّتِهِ أُمِّ الْحُصَيْنِ رضي الله عنها قَالَ سَمِعْتُهَا تَقُولُ حَجَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَجَّةَ الْوَدَاعِ فَرَأَيْتُهُ حِينَ رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ وَانْصَرَفَ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَمَعَهُ بِلالٌ وَأُسَامَةُ أَحَدُهُمَا يَقُودُ بِهِ رَاحِلَتَهُ وَالآخَرُ رَافِعٌ ثَوْبَهُ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الشَّمْسِ قَالَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَوْلاً كَثِيراً

---

(١) أخرجه البخاري ٢٦٣٣/٦ (ح/٦٧٧٦).

(٢) أخرجه مسلم ١٤٧٢/٣ ـ ١٤٧٤ (ح/١٨٤٤).

(٣) أخرجه البخاري ٢٦١١/٦ (ح/٦٧١٨) ومسلم ١٤٦٦/٣ (ح/١٨٣٥).

(٤) أخرجه مسلم ١٤٦٧/٣ (ح/١٨٣٦ ـ ٣٤١٩).

ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ - حَسِبْتُهَا قَالَتْ أَسْوَدُ - يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا»[1].

والأدلة كثيرة يكفي ما ذكرت.

الأدلة من السيرة النبوية:

والالتزام بالطاعة والانضباط في حياة الصحابة الكرام رضي الله عنهم كثيرة ترى بعضاً منها:

سرية عبدالله بن جحش رضي الله عنه إلى نخلة:

قال ابن إسحاق وبعث رسول الله ﷺ عبدالله بن جحش بن رئاب الأسدي في رجب مقفله من بدر الأولى وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به ولا يستكره من أصحابه أحداً. فلما سار بهم يومين فتح الكتاب فإذا فيه إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارها.

فلما نظر في الكتاب قال سمعاً وطاعة وأخبر أصحابه بما في الكتاب، وقال لقد نهاني أن أستكره أحداً منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فلينطلق، ومن كره ذلك فليراجع. أما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف منهم أحد رضي الله عنهم[2].

---

(١) أخرجه مسلم ١٤٦٨/٣ (ح/١٨٣٨).

(٢) مجمع الزوائد ٦٦/٦ - ٦٧ وقال: رواه الطبراني بإسناد حسن.

غزوة التربية على الطاعة:

ومن أهم المواقف التربوية العملية في الطاعة والانضباط في حياة أصحاب النبي ﷺ ما حدث يوم أحد وذلك:

أن النبي ﷺ اختار خمسين من الرماة وجعل عبدالله بن جبير أميراً عليهم وأمرهم بملازمة جبل (عينين) المقابل لجبل أحد من الجهة الجنوبية والمعروف الآن بجبل الرماة، وحدد مهمتهم بحماية المسلمين من التفاف خيالة المشركين عليهم، ورمي خيل المشركين بالنبل إن اقتربت، وذلك لتحييد سلاح الفرسان في المعركة، حيث أن الخيل أشد ما يؤذيها النبل.

وكان التوجيه الصادر إليهم:

عن الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الرَّجَّالَةِ يَوْمَ أُحُدٍ وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلاً عَبْدَاللَّهِ بْنَ جُبَيْرٍ فَقَالَ: «**إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ، فَلاَ تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ، فَلاَ تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ**»، فَهَزَمُوهُمْ قَالَ فَأَنَا وَاللَّهِ رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ قَدْ بَدَتْ خَلاَخِلُهُنَّ وَأَسْوُقُهُنَّ رَافِعَاتٍ ثِيَابَهُنَّ فَقَالَ أَصْحَابُ عَبْدِاللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ الْغَنِيمَةَ أَيْ قَوْمِ الْغَنِيمَةَ ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ فَقَالَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ أَنَسِيتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالُوا: وَاللَّهِ لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ فَلَنُصِيبَنَّ مِنَ الْغَنِيمَةِ فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ فَأَقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ فَذَاكَ إِذْ يَدْعُوهُمُ الرَّسُولُ فِي أُخْرَاهُمْ فَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً[1].

---

(١) أخرجه البخاري ٣/١١٠٥ (ح/٢٨٧٤).

عدم الطاعة هزيمة:

وقد لحظ خالد بن الوليد - وكان قائداً لخيل قريش - ما حدث على جبل الرماة من نزول وزوال خطر النبال على حركة الخيل، فانتهز فرصة سانحة ليقوم بحركة التفاف خطيرة حول المسلمين حيث نادى في خيالة المشركين وقادهم إلى خلف خطوط المسلمين، وصعدت فرقة منهم إلى جبل الرماة فقتلت عبدالله بن جبير ومن معه رضوان الله عليهم، ثم بدأت بضرب المسلمين من الخلف، وقد رأى المشركون ما فعل خالد فعادوا للقتال من جديد[(١)].

وفي درس الطاعة في أحد يرد:

«يجب على المؤمن أن يطيع الأمر المتوجه إليه من ولي الأمر المؤمن لأن في طاعته طاعة لله وطاعة لرسوله ﷺ وحصول للأجر من الله على تلك الطاعة، كما أن عليه أن يترك الاجتهاد المخالف للأمر الصريح مهما كانت وجاهة الاجتهاد. فالإسلام دين اتباع»[(٢)].

وفي مسيرة الدعوة المعاصرة ترد:

«قصة أحد الدعاة المشتغلين بالتربية والدعوة أنه أراد أن يولي شخصاً عملاً إلا أنه لم يجرب مدى السمع والطاعة عنده، فأرسل له في ليلة عرسه أمراً بأن يتوجه في آخر قطار في الليل إلى منطقة حدَّدها له، وأن يصلي الفجر في قرية حددها له، وأن فلاناً سيجده يخبره بمهمته هناك. وعندما استلم الرسالة استأذن

---

(١) السيرة النبوية - ابن هشام - ٣/١١٢.

(٢) دروس في السيرة النبوية وعبرها للمؤلف /١٨٢.

على الفور واتجه إلى محطة القطار في الوقت المحدد إلا أنه وجد آمره ومعه بعض صحبه ومعهم الورود يقولون له: بارك الله لك وبارك عليك، وجمع بينكما على خير. ارجع لأهلك، فعلم مقدار طاعته.

من هم أولوا الأمر الواجب طاعتهم؟

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾[١].

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلاَثٌ لاَ يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ، إِخْلاَصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ الدَّعْوَةَ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ» وفي رواية بدل أئمة المسلمين (ولاة الأمر)[٢].

معنى أولي الأمر في اللغة:

أولي: جمع لا مفرد له بمعنى «ذوو» أي أصحاب، ولا يأتي إلا مضافاً[٣].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٢) أخرجه الترمذي ٣٤/٥ (ح/٢٦٥٨) وهو صحيح، صحيح سنن الترمذي ٣٣٧/٢ - ٣٣٨ (ح/٢١٣٩).

(٣) القاموس المحيط /١٢٤٤.

الأمر: يطلق ويراد به ضد النهي، ويجمع على أوامر. يقال أمره فأتمر، أي قبل أمره، وقد يراد به الشأن، ويجمع على أمور ـ وهو المقصود هنا ـ.

والأمر مصدر أمر يأمر، متلث الميم بمعنى ولي، والاسم الإمرة وهي الإمارة[1].

والمعنى الشرعي: أولوا الأمر: أي أصحاب التصرف في شأن الأمة الذين يملكون زمام الأمور وبيدهم قيادة الأمة.

ما المراد بأولي الأمر الوارد في الآية والحديث؟

لقد اختلف العلماء في المراد به على أقوال أشهرها ما يأتي:

الأول: أنهم الأمراء

قاله جمع من السلف منهم أبو هريرة وابن عباس ورجحه الطبري.

قال النووي: وهو قول جمهور السلف والخلف.

الثاني: أنهم العلماء

وبه قال جمع من السلف أيضاً منهم جابر بن عبدالله والحسن البصري والنخعي وغيرهم.

---

(١) تاج العروس ١٠/٦٨.

قال الرازي: والعلماء في الحقيقة هم أمراء الأمراء، فكان حمل لفظ أولي الأمر عليهم أولى[1].

الثالث: أنهم أصحاب النبي ﷺ

قاله مجاهد.

الرابع: أنهم الأمراء والعلماء

وبه أخذ الجصاص وابن العربي والشوكاني وابن تيمية وابن كثير وابن القيم.

قال الجصاص: وليس يمتنع أن يكون ذلك أمراً بطاعة الفريقين من أولي الأمر وهم أمراء السرايا والعلماء.

وقال ابن العربي: والصحيح عندي أنهم الأمراء والعلماء جميعاً، أما الأمراء فلأن أصل الأمر منهم والحكم إليهم، وأما العلماء فلأن سؤالهم واجب متعين على الخلق وجوابهم لازم وامتثال فتواهم واجب[2].

قال ابن القيم: والتحقيق أن الأمراء يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول، فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء[3].

---

(١) التفسير الكبير للرازي ١٤٤/١٠.

(٢) الموسوعة الفقهية ٣٢٥/٢٨ وتفسير ابن كثير ٥٣٠/١ وأحكام القرآن ٤٥٢/١.

(٣) أعلام الموقعين ١٠/١.

الخامس: ما هو أعم من ذلك، ليشمل كل آمر (أهل الحل والعقد)

فكل من له حق الطاعة من أب أو زوج أو غيرهم يدخل في هذا[1].

قال الدكتور وهبة الزحيلي حفظه الله، بعد إيراده للأقوال: «والظاهرة إرادة الجميع، فتجب طاعة الحكام في السياسة وقيادة الجيوش وإدارة البلاد، وتجب طاعة العلماء في بيان أحكام الشرع وتعليم الناس الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[2].

وقال الشيخ ابن عاشور حفظه الله: «ولما أمر الله بطاعة ولي الأمر علمنا أنَّ أولي الأمر في نظر الشريعة طائفة معينة، وهم قدوة الأمة وأمناؤها، فعلمنا أن تلك الصفة تثبت لهم بطرق شرعية، إذ أمور الإسلام لا تخرج من الدائرة الشرعية، وطريق ثبوت هذه الصفة لهم إما الولاية المستندة إليهم من الخليفة ونحوه، أو من جماعات المسلمين إذا لم يكن لهم سلطان، وإما صفات الكمال التي تجعلهم محل اقتداء الأمة بهم. وهي الإسلام والعلم والعدالة، فأهل العلم العدول: من أولي الأمر بذاتهم لأن صفة العلم لا تحتاج إلى ولاية بل هي صفة قائمة بأربابها الذين اشتهروا بين الأمة بها، لما جُرِّبَ من علمهم واتقانهم في الفتوى والتعليم.

قال مالك رحمه الله: أولوا الأمر: أهل القرآن والعلم. يعني أهل العلم بالقرآن والاجتهاد.

---

(١) الحسبة /١٨٥ وتفسير المنار ١٨١/٥ وتفسير الخازن ٣٧٢/١.

(٢) التفسير المنير ١٢٦/٥.

فأولوا الأمر هنا هم من عدا الرسول ﷺ من الخليفة إلى والي الحسبة، ومن قواد الجيوش ومن فقهاء الصحابة والمجتهدين إلى أهل العلم في الأزمنة المتأخرة، وأولوا الأمر هم الذين يطلق عليهم أيضاً أهل الحل والعقد»[1].

وقال في الظلال: «وأولي الأمر منكم: أي من المؤمنين الذين يتحقق فيهم شرط الإيمان وحدُّ الإسلام المبين في الآية، من طاعة لله وطاعة الرسول، وإفراد الله سبحانه بالحاكمية وحق التشريع للناس ابتداء، والتلقي منه وحده فيما نص عليه والرجوع إليه أيضاً فيما تختلف فيه العقول والأفهام والآراء مما لم يرد فيه نص لتطبيق المبادىء العامة في النصوص عليه.

والنص يجعل طاعة الله أصلاً، وطاعة رسوله أصلاً كذلك بما أنه مرسل منه، ويجعل طاعة أولي الأمر منكم تبعاً لطاعة الله وطاعة رسوله، فلا يكرر لفظ الطاعة عند ذكرهم، كما كرره عند ذكر الرسول ﷺ، ليقرر أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله وطاعة رسوله، بعد أن قرر أنهم منكم بقيد الإيمان وشرطه»[2].

قال ابن القيم رحمه الله: «قد قيل: هم الأمراء وقيل هم العلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد. والتحقيق أن الآية تتناول الطائفتين، وطاعتهم من طاعة الرسول ﷺ فكان العلماء مبلغين لأمر الرسول ﷺ والأمراء منفذين، فحينئذ تجب طاعتهم تبعاً لطاعة الله ورسوله ﷺ»[3].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٥/٩٨.
(٢) في ظلال القرآن ٢/٦٩١.
(٣) أعلام الموقعين ٢/٢٢٩.

الموقف من الولاة «الحكام والأمراء»:

قال الإمام الطحاوي رحمه الله «ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا، ولا ندعوا عليهم، ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة، ما لم يأمروا بمعصية وندعوا لهم بالصلاح والمعافاة»[1].

عَنْ جُنَادَةَ بْنِ أُمَيَّةَ قَالَ دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه وَهُوَ مَرِيضٌ قُلْنَا أَصْلَحَكَ اللَّهُ حَدِّثْ بِحَدِيثٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةً عَلَيْنَا، وَأَنْ لا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ إِلاَّ أَنْ تَرَوْا كُفْراً بَوَاحاً عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[2].

قال الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله تعليقاً على الحديث: «فهذا يدل على أنه لا يجوز منازعة ولاة الأمور، ولا الخروج عليهم إلا أن يروا كفراً بواحاً عندهم من الله فيه برهان، وما ذاك إلا لأن

---

(١) العقيدة الطحاوية /٤٢٩.

(٢) أخرجه البخاري ٢٥٨٨/٦ (ح/٦٦٤٧) ومسلم ١٤٧١/٣ (ح/١٧٠٩).

الخروج على ولاة الأمر يسبب فساداً كبيراً، وشراً عظيماً.

فيختل به الأمن، وتضيع الحقوق، ولا يتيسر ردع الظالم ولا نصر المظلوم، وتختل السبل ولا تأمن، فيترتب على الخروج فساد عظيم وشر كثير، إلا إذا رأى المسلمون كفراً بواحاً عندهم من الله فيه برهان، فلا بأس أن يخرجوا على هذا السلطان لإزالته إذا كان عندهم قدرة، أما إذا لم يكن عندهم قدرة فلا يخرجوا، أو كان الخروج يسبب شراً أكثر فليس لهم الخروج رعاية لمصالح العامة، والقاعدة الشرعية المجمع عليها «أنه لا يجوز إزالة الشر بما هو أشر منه، بل يجب درء الشر بما يزيله أو يخففه»[1]. وسيأتي التفصيل.



---

(١) المعلوم من واجب العلاقة بين الحاكم والمحكوم /٩ ابن باز ط/ دار البر الإمارات.

أمثلة لعملية الانضباط

١ ـ الانضباط في الوقت:

قال ابن القيم رحمه الله: «الوقت أبيُّ الجانب، بطيء الرجوع، فالوقت أعز شيء، فإذا فات الوقت لا يمكن استدراكه البتة، لأن الوقت الثاني قد استحق واجبه الخاص، فإذا فات وقت فلا سبيل إلى تداركه»[1].

واستغلال الوقت يقضي على التأخير، فالمهمات المفتوحة لا تنتهي أبداً، ويكون الاستغلال كالتالي:

- أن يوجد آمر يستغل الوقت بتنظيم أفكاره.
- وأن يوجد مأمور يأخذ تلك الأفكار بوجه حسن.
- وأن يوجد آمر يستخدم الوقت استخداماً حسناً.
- وأن يوجد مأمورون تُستغل طاقاتهم كلها بانتظام.

والوقت أغلى ما يملكه الإنسان فالوقت هو الحياة.

والوقت له طول، وعرض، وعمق.

---

(١) تهذيب المدارج /٥٢٩.

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي رحمه الله ما معناه:

الوقت له طول: وذلك كالموظف الذي لا يهمه من الوقت إلا مروره انتظاراً للراتب، فلا يفكر في إنجازه ما أنجز، أو عمله ماذا عمل. ولكن تفكيره منحصر في مرور الوقت. ومتى يصل إلى مراده؟ فهذا يستفيد من طول الوقت، فهو يعد الليالي والأيام وهي تعده.

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان

وللوقت عرض: وذلك بأن يؤدي ما يؤديه غيره من الأعمال المطلوبة منه. فالمدرس المطلوب منه أن ينفذ أربع حصص، وأن يقطع كذا درس من الكتاب المقرر، فإذا أتم فقد استفاد من عرض الوقت.

وللوقت عمق: وهو البركة في الوقت، وذلك بأن تنجز من الأعمال ما يحتاج إلى وقت طويل في وقت أقل. فإن حصلت عليه تكون قد حصلت على البركة في الوقت.

وبهذا الأخير نُفَسر الإنجازات التي تحققت على أيدي علمائنا المسلمين. فإن الوقت لو كان بطوله أو عرضه الذي قضوه في الدنيا فإنه لا يكفي لما حققوا من علم وإبداع وعمل وجهاد، ولكنهم حصلوا على عمق الوقت فبارك الله في جهودهم وأوقاتهم(١).

ومصداق قول الأستاذ الندوي رحمه الله تعالى وارد في الحديث الآتي:

---

(١) من محاضرة له في جامعة الإمارات. بمعناه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وما تقرب إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[1].

٢ ـ الانضباط في بذل الجهد من قبل الفرد:

فهو يمنع من تعيين مراقب عليه. ويقوم بإيقاظ الضمير والخشية الداعية إلى إجادة العمل.

والضبط في الإدارات والمصانع يظهر من خلال الساعة الطابعة، والكمبيوتر والبطاقة الفاتحة. وذلك أن الشركات تعمد لضبط موظفيها بوضع الساعة الطابعة، حيث يأتي كل موظف ببطاقة خاصة به فيدخلها في جهاز الساعة عند حضوره فتقوم الساعة بطباعة الوقت والتاريخ الذي تم فيه إدخال البطاقة. وفي نهاية الشهر يتم تسليم البطاقات لجهة الاختصاص لصرف مستحقاته بناء على عدد ساعات عمله، فتكون هذه العملية سبباً من أسباب الانضباط في العمل.

وقد تم تطوير هذه الطريقة بواسطة الكمبيوتر، فأصبح العامل لا يستطيع الدخول إلى مقر عمله إلا بوضعه بطاقته في

---

(١) أخرجه البخاري ٥/٢٣٨٤ ـ ٢٣٨٥ (ح/٦١٣٧).

جهاز بالباب ليفتح له أو يضعها في المصعد ليستجيب له، ومن خلال ذلك يسجل حضوره من عدمه بواسطة الكمبيوتر.

بل إن أجهزة المراقبة الإلكترونية التي تعد الأنفاس مزروعة في كل مكان، وخاصة في مواقع الإنتاج، بحيث تراقبه وتراقب إنتاجه، لأن العامل قد يحضر لكنه لا يعمل. وكل ذلك من أجل انضباط أكمل، وطاعة أتم.

٣ ـ الانضباط في الأخذ بطريقة العمل المناسبة:

يجب فتح باب الاجتهاد وإعمال الفكر في التجديد والإبداع في طرائق العمل، ومحاولة تطويرها باستخدام ما يجد من وسائل، وما يتناسب مع كل عمل أو مهمة، ودعوى الوفاء للوسائل القديمة لا مكان له في عالم متجدد، فالقاعدة أن الثبات للمبادىء فقط والتطوير للوسائل.

٤ ـ الانضباط في عدم التساهل بتحقيق الأهداف:

الانضباط يحفز الهمم نحو استخدام القوى العاملة إلى أقصى طاقة لتحقيق الأهداف، والصبر على مشقات الأداء حتى يتم بلوغ الغايات، ولا يتنازل عن الأهداف إلا أصحاب العقول المستريحة.

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله لتلميذه أبي سعيد وقد طلب من الإمام أن يجيبهم إلى بعض ما طلبوا من القول بخلق القرآن.

فقال له الإمام: إن كان هذا عقلك يا أبا سعيد فقد استرحت.

وفي هذا العصر يذكر الأستاذ عمر التلمساني رحمه الله أن أخاه الأكبر زاره في السجن، وأكثر عليه في حثه على أن يقدم التماساً واعتذاراً لكي يُفرج عنه من السجن.

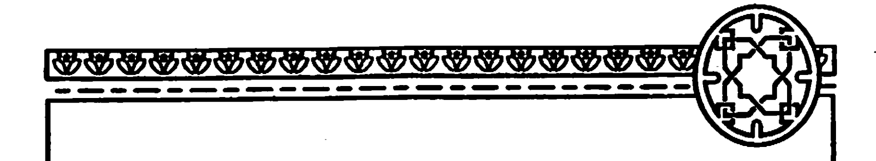
فأجابه الأستاذ عمر قائلاً: إما أن تسكت عن هذا الموضوع وإلا قطعت الزيارة مضطراً وأحرجتك أمام الحاضرين.

وذلك لأن سجنه بسبب حمله لدعوة الله، وساجنه ظالم غاشم معتد، فما كان له أن يستعطفه ويرجوه بل يصبر ويحتسب. وقد كان[1]. قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾[2].



(١) ذكريات لا مذكرات /٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٢) سورة النمل، الآية: ٥٢.



فوائد الانضباط والطاعة

أولاً - ضبط العلاقات:

يعيش المسلم في أطر علاقات أربع لا بد منها لكمال وجوده وسعادته وفوزه في الدنيا والآخرة:

الأولى: علاقته مع الله

وهذه العلاقة يستمد منها المنهج والرضا والإيمان.

وقد نظمت هذه العلاقة من خلال الاستجابة لأمر الله تعالى وطاعته.

قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[1].

ويحددها قول النبي ﷺ الوارد في الحديث الآتي: قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ: **(أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)**[2].

الثانية: علاقته مع عالم الشهادة (الدنيا)

وهو العالم الذي يعيش فيه مدة الحياة، وهي معيشة تتحدد

---

(١) سورة الملك، الآية: ١٤.

(٢) أخرجه مسلم ٣٦/١ (ح/٨) واللفظ له.

من خلال أركان الإسلام، توحيداً لله مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[1] وتحقيقاً لبقية الأركان المشعة بالسمو الإيماني والأخلاقي المتكامل الذي لا تصلح الحياة إلا به.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾[2].

الثالثة: علاقته مع الآخرة (عالم الغيب)

وتلك العلاقة هي نتيجة الفعل والقول في عالم الشهادة يجدها في عالم الغيب ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ عند عدم التزامه بذلك.

والمتأمل يرى أن أركان الإسلام ينتهي العمل بها لحظة الموت، وتنتقل العلاقة إلى أركان الإيمان المفروض أن تكون قد أُسست استعداداً لعملية الانتقال إلى العالم الآخر، فتأتي أركان الإيمان موضحة لذلك ومبينة له.

الرابعة: علاقته مع الوجود من حوله

وهي علاقة التوافق بين خلق الله وقول الله، إذ لا يمكن أن نتصور تلك العلاقة في تمامها وتوافقها إلا من خلال التصور الإسلامي الصحيح، والنظرة المستقيمة لذلك الأمر كما جاء من عند الله تعالى.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٢) سوره طه، الآيات: ١٢٤ ـ ١٢٦.

ولذا كان الإحسان مرة أخرى هو العامل المؤسس الراقي فيها.

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ...**»[1].

عن عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ. حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلاَمِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**».

قال صَدَقْتَ قَالَ فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ.

قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**».

قَالَ صَدَقْتَ قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ.

قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[2].

---

(١) أخرجه مسلم ١٥٤٨/٣ (ح/١٩٥٥).

(٢) أخرجه مسلم ٣٦/١ (ح/٨) واللفظ له.

وبكمال هذا الضبط يسعد الإنسان في الدنيا والآخرة، وتكمل طاعته المؤدية إلى رضا الله تعالى.

ثانياً ـ تحقيق العزة والسيادة:

يتحقق من خلال الانضباط والطاعة جمع الكلمة وتراص الصفوف المحبوب إلى الله تعالى والمأمور به منه. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ ۝٤﴾[1].

ورسالة الإسلام هي رسالة الإنسان في كل موقع وزمان تدعوه إلى الإيمان بالله الخالق الآمر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾[2].

وتحرير الإنسان من قيود وعوائق تمنعه حريته التي من خلالها يحدد خياره وموقعه بين قضية الإيمان أو عدمه هي مهمة المسلم التي يجاهد من أجلها في هذه الحياة.

إننا لا نجاهد أعداء الدين ولا نطلب تحقيق العزة والسيادة لديننا لكي نكره الناس على قبوله، فلا إكراه في الدين.

قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن

---

(١) سورة الصف، الآية: ٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

﴿يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾[١].

ولكننا نفعل ذلك ليتحرر الناس وليصلوا إلى ميدان الحرية اللائق للإنسان كإنسان، ثم بعد ذلك نقدم لهم هدي خالقهم وربهم، ونبصرهم بالهدف الذي من أجله خلقوا، ونبين لهم أن رسالة محمد ﷺ هي الرسالة الخاتمة التي أمر الله بالإيمان بها، وحثَّ الرسل أقوامهم على الإيمان بها، ونوضح لهم أن سعادتهم في الدنيا والآخرة لا تتحقق إلا من خلال الإيمان بتلك الرسالة.

ثم هو بعد ذلك بالخيار بين القبول أو عدمه.

كما أن الأمة الإسلامية تحتاج إلى العزة والسيادة لتطبيق المنهج وتسيير الحياة وُفْقَهُ. ولتدفع الباطل وأهله. ولا يتم ذلك كله إلا من خلال البناء القوي لتلك الأمة القائم على الانضباط والطاعة.

لذا فإن:

- الطاعة طريق الوحدة.
- الوحدة طريق القوة.
- القوة تعني العزة والسيادة.

قال علي رضي الله عنه: أفعلتم ما أمرتكم به؟

قالوا: لا.

قال: والله لتفعلن ما تؤمرون به، أو لتركبنَّ أعناقكم اليهود والنصارى[٢].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٢) كنز العمال ٥/٧٨٠ (ح/١٤٣٦٧).

وقال حذيفة رضي الله عنه: ألا لا يمشي رجل منكم شبراً إلى ذي سلطان ليذله، فلا والله لا يزال قوم أذلوا السلطان أذلاء إلى يوم القيامة[١].

ثالثاً ـ عدم فوات الدنيا لا في نفس ولا في مال:

من قضايا الإيمان المتجذرة في قلب المؤمن أن الله تعالى قد كتب أجله ورزقه قبل خروجه للحياة.

عن عَبْدِاللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ قَالَ: **«إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكاً فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ وَيُقَالُ لَهُ اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ. . .»** الحديث[٢].

ويعلم المؤمن أن الأمور تجري بالمقادير فهو يأخذها بقوة وشجاعة تجعله يقف على أرض صلبة من الإيمان التام بالقدر خيره وشره من الله تعالى، ليحسم من خلال ذلك الإيمان ما يمكن أن يحدث للنفس البشرية من الهلع والخوف عن المستقبل الغائب الذي لا تراه.

والذي يلوي أعناق الناس هذان الأمران: الخوف على الحياة، والخوف على الرزق. فهما مسألتان قد قُضي فيهما، وترسخ من خلال قول النبي ﷺ عدم قدرة أحد على التقديم فيها أو التأخير أو الزيادة أو النقص غير الله.

---

(١) انظر السابق.

(٢) أخرجه البخاري ١١٧٤/٣ ـ ١١٧٥ (ح/٣٠٣٦) ومسلم ٢٠٣٦/٤ (ح/٢٦٤٣).

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضي الله عنهما قَالَ كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْماً، فَقَالَ: «**يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ. احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ. احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ. إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»[1].

وفي التدليل على عدم الفوات حتى لا يخاف جافل يعمل في ميدان الدعوة فتبهره ضخامة الكيد أو يصاب بجزر نفسي وإحباط من كثرة الأسس الوهمية المدعاة التي يقوم عليها الباطل. أورد له هذه القصة التي فيها مثل على الانضباط والطاعة، وأن ملتزمهما لا يخاف فواتاً لدنيا ولا حياة. فكان هذا الفهم فائدة مستقاة من فوائد الانضباط والطاعة.

وهناك تصور خاطىء أن الطاعة قد تفوت النفس أو المال أو الجاه، وهذا خطأ.

فهذا حذيفة رضي الله عنه عندما أطاع النبي ﷺ وذهب ليأتي بخبر الأحزاب لم يشعر ببرد ولا ريح، بل عافاه الله ببركة إجابته للنبي ﷺ.

عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه فَقَالَ رَجُلٌ لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ،

---

(١) أخرجه الترمذي ٤/٦٦٧ (ح/٢٥١٦) وقَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

فَقَالَ حُذَيْفَةُ أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ. لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الأَحْزَابِ وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ.

ثُمَّ قَالَ: «**أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ ثُمَّ قَالَ: «**أَلاَ رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ.

فَقَالَ: «**قُمْ يَا حُذَيْفَةُ فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ**» فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ. قَالَ: «**اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ**». فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ فَوَضَعْتُ سَهْماً فِي كَبِدِ الْقَوْسِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «**وَلاَ تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ**»، وَلَوْ رَمَيْتُهُ لأَصَبْتُهُ، فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَفَرَغْتُ، قُرِرْتُ فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا فَلَمْ أَزَلْ نَائِماً حَتَّى أَصْبَحْتُ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: «**قُمْ يَا نَوْمَانُ**»[1].

وحُكي عن أحد علماء الجهاد في الجزائر أن إخوانه قالوا له: متعنا بنفسك فإنك تُعَرِض نفسك للمخاطر.

---

(١) أخرجه مسلم ١٤١٤/٣ ـ ١٤١٥ (ح/١٧٨٨) والقر: هو البرد. وتذعرهم: تهيجهم.

فقال لهم بلهجته: «الله مو خداع، وأنا مو طماع».

ويقصد أن الأجل الذي حدده الله له لا يمكن الإخلاف به إذا وقع في ورطة قبل موعده، وأنه لا يطمع في الزيادة. فقد رضي بما كتبه الله له. وهذا هو شأن المؤمن المنضبط.

رابعاً - الهداية إلى الصراط المستقيم لا سيما في الأمور المشكلة، والمواقف المباغتة:

إن تكرير المسلم لطلب الهداية إلى الصراط المستقيم في قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾[1] هو تمام القصد الذي يحققه الانضباط والطاعة في النفس البشرية. واستقامة تلك النفس على الهدى ومجاهدتها فيه لأجل أن تبقى هي أولاً في دائرة السعادة والسرور الذي يطلبه الإنسان في حياته. ولتبقى ثانية في دائرة حسن التعامل مع الآخرين من خلال منهج أخلاقي مستقيم يجلب الخير ويدفع الشر.

وإن قوة الطاعة والانضباط تحقق ذلك الهدف من استقامة النفس البشرية، لذا فإن:

- الطاعة تعني مجاهدة النفس، والانتصار على ميولها وأهوائها.

- وعد الله لمن جاهد نفسه أن يوفقه إلى طريق الهداية والخلاص. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾[2].

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٦.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

قال ابن عطية رحمه الله في الآية: «وهي قبل الجهاد العرفي، إنما هو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته».

وقال أبو سليمان الداراني: ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط، بل هو نصر الدين، والرد على المبطلين، وقمع الظالمين، وعظمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفس في طاعة الله، وهو الجهاد الأكبر.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالنصرة والمعونة، والحفظ والهداية، ومع جميع الناس بالإحاطة والقدرة.

فتكون فائدة المجاهدين في طاعة الله أمرين: التوفيق للخير، والإيمان والسعادة، والعون والتأييد والحفظ[1].

والمزيد من الثبات على الطاعات يحقق:

- يثيب الله على الطاعة بالتوفيق لطاعة أخرى.
- يعاقب الله على المعصية بمعصية أخرى.
- عدم الطاعة فتح لضياع ثمرات الجهاد والصبر والجهود.

قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾[3].

---

(١) التفسير المنير/ الزحيلي ٤١/٢١.
(٢) سورة مريم، الآية: ٧٦.
(٣) سورة محمد، الآية: ١٧.

خامساً ـ حصول الأجر العظيم:

الطاعة سبب لرضوان الله ودخول جنته، والعصيان سبب لدخول ناره.

يقول ابن القيم رحمه الله: «وإذا خلا القلب من ملاحظة الجنة والنار ورجاء هذه والهرب من هذه، فترت عزائمه، وضعفت همته، ووهى باعثه، وكلما كان أشد طلباً للجنة وعملاً لها، كان الباعث أقوى، والهمة أشد، والسعي أتم، وهذا أمر معلوم بالذوق ولو لم يكن مطلوباً للشارع، لَمَا وصف الجنة للعباد، وزينها لهم، وعرضها عليهم، وأخبر عن تفاصيل ما تصل إليه عقولهم عنها، وما عداه أخبرهم به مجملاً، كل هذا تشويقاً لهم، وحثاً لهم على السعي لها سعياً»[١].

والطاعة سبب لمرافقة الصالحين.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَى**» قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**»[٢].

وفوائد ذلك مجموعة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ

---

(١) تهذيب المدارج /٣١٧.

(٢) أخرجه البخاري ٦/٢٦٥٤ (ح/٦٨٥١).

﴿ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ۝٧٠﴾[1].

وحصول الأجر ومضاعفته يتحصل بدعوة الآخرين والأخذ بيدهم إلى طريق الهداية والعمل الصالح.

عن سهل بْنَ سَعْدٍ رضي الله عنه قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ: **«لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غداً رَجُلاً يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»**. فَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَى فَغَدَوْا كُلُّهُمْ يَرْجُوهُ فَقَالَ: **«أَيْنَ عَلِيٌّ»** فَقِيلَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ. فَقَالَ: أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا. فَقَالَ: **«انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ الإِسْلامَ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»**[2].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً»**[3].

يقول المودودي رحمه الله: «من الوجهة الدينية الخالصة، فإن طاعة أفراد الجماعة لأميرهم في المعروف جزء من طاعتهم لله ورسوله، وإذا كان الإنسان لم يقم بأمر هذه الدعوة إلا مع الاعتقاد

---

(١) سورة النساء، الآيات: ٦٦ ـ ٧٠.

(٢) أخرجه البخاري ١٠٩٦/٣ (ح/٢٨٤٧) ومسلم ١٨٧٢/٤ (ح/٢٤٠٦).

(٣) أخرجه مسلم ٢٠٦٠/٤ (ح/٢٦٧٤).

بأنه إنما يقوم بأمر الله ورسوله وهو لم يرض بأحد أميراً على نفسه إلا ابتغاء وجه الله وتقرباً عليه، فهو بطاعته لأميره في أوامره المشروعة إنما يطيع الله ورسوله في حقيقة الأمر، ويكون مبادراً إلى ذلك على قدر ما يكون اتصاله بالله ورسوله، وطاعة الأخ هذه بما أنَّها لله، فأجرها عند الله عظيم»[1].

سادساً ـ البقاء في جماعة:

إن أهم أهداف الطاعة والانضباط في البناء المجتمعي أن يتحقق المجتمع الذي يطبّق الإسلام وينفّذ تشريعاته، فالإسلام ليس تديناً ذاتياً فردياً فحسب، بل هو قيام المجتمع البديل وبناء الأمة على منهج الله.

وذلك لأن أحكاماً كثيرة في الإسلام لا يمكن أن تتحقق في واقع التطبيق إلا من خلال ذلك الجهد المبذول في إقامة المجتمع والجماعة المنفذة لتلك الأوامر.

وإن المتأمل لسيرة النبي ﷺ يرى ما يأتي:

● أن النبي ﷺ بعد وصول قناعته بأن مكة لم تعد الموطن المناسب لقيام الأمة والدولة لعدم استجابة قريش للدعوة وسلوكهم في محاربتها كل مسلك، بدأ رسول الله ﷺ في البحث عن الموقع الآخر، فرحل إلى الطائف، وعرض نفسه على القبائل يطلب منها حمايته وحماية الدعوة.

● أن الهدف لو كان هو التدين الذاتي. فإن مكة لم تضق على متعبد أقفل عليه باب بيته، أو لجأ إلى شعب من شعابها أن

---

(١) تذكرة دعاة الإسلام /١٤ ـ ١٥.

يصلي، أو اختلس لحظة عند الكعبة في شكل انفرادي. لا تتحقق به جماعة، ولا تقوم به أمة، ولا دولة. لذا فإن الهدف هو البناء التجمعي للأمة الذي يحقق أهدافها.

وإن العمل المتسق المفيد لا يوجد إلا بمؤسسة وخطة، ولا تنفذ الخطة إلا بإمرة. ولا إمرة إلا بطاعة. فلا يتحقق البقاء إلا بطاعة وانضباط.

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنه لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمرة، ولا إمرة إلا بطاعة»[1].

ويقتضي البقاء في جماعة الإعراض عن المتأخرين.

فالدعوة قطار يتحرك بركابه، ويقف في محطات يصعد إليه قوم، وينزل آخرون، فلا تكن من النازلين ولو لإعادة نازل غيرك، فلعلَّ القطار يتحرك ويتركك، فالأولى أن تنصح من يريد النزول وأنت على مقعدك في القطار، أو تطلب من الناس أن يصعدوا وأنت مكانك.

عَنْ حُذَيْفَةَ رَضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لاَ تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلاَ تَظْلِمُوا»**[2].

---

(١) أخرجه الدارمي موقوفاً ٧٩/١ وانظره في فتح المنان شرح الدارمي ٣٧٩/٢ (ح/٢٦٥) وهو في جامع بيان العلم وفضله ٧٤/١.

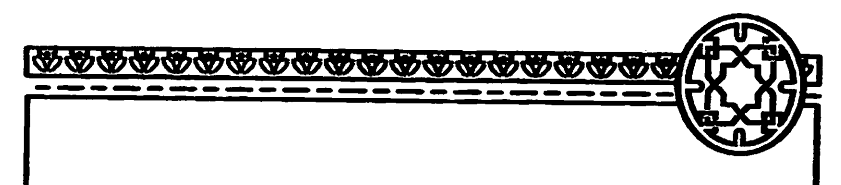
(٢) أخرجه الترمذي ٣٦٤/٤ (ح/٢٠٠٧) وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقال الألباني: ضعيف. انظر ضعيف سنن الترمذي /١٩٠.

«والعمل مع الغير يتطلب أموراً منها:

- فقه دقيق.
- صبر جميل.
- ترويض للنفس.
- قدر كبير من ضبط النفس.
- نكران الذات.
- التواضع.
- قابلية الانسجام مع سير المشتركين معه في العمل.
- قبول الرأي المخالف لرأيه»[1].

❀ ❀ ❀

(١) أصول الدعوة ٤٤٩.



أنواع الطاعة وحكم كل نوع

أولاً ـ طاعة الله تعالى:

طاعة الله تعالى فرض على كل مكلف.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾[1].

ومن حق الباري جل ثناؤه على من أبدعه أن يكون أمره عليه نافذاً وطاعته له لازمة[2].

قال الطبري في تأويل قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾[3].

يعني: وما أمر هؤلاء اليهود والنصارى الذين اتخذوا الأحبار والرهبان والمسيح أرباباً إلا أن يعبدوا معبوداً واحداً، وأن

---

(١) سورة محمد، الآية: ٣٣.

(٢) الموسوعة الفقهية ٣٢١/٢٨.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣١.

لا يطيعوا إلا رباً واحداً دون أرباب شتى، .وهو الله الذي له عبادة كل شيء وطاعة كل خلق، المستحق على جميع خلقه الدينونة له بالوحدانية والربوبية لا إله إلا هو، ولا تنبغي الألوهية إلا لواحد. وهو الذي أمر الخلق بعبادته ولزمت جميع العباد طاعته سبحانه عما يشركون.

وقد بين النبي ﷺ كيفية اتخاذ اليهود والنصارى الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله.

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ: «يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ» وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قَالَ: «أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئاً اسْتَحَلُّوهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئاً حَرَّمُوهُ»[1].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يأمروهم أن يسجدوا لهم. ولكن أمروهم بمعصية الله فأطاعوهم، فسماهم الله بذلك أرباباً.

وقال الحسن: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً في الطاعة[2].

وطاعة الله هي الرضا بدينه تعالى.

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٧٨/٥ (ح/٣٠٩٥) وهو حسن. صحيح الترمذي (ح/٢٤٧١).

(٢) انظر الموسوعة الفقهية ٣٢٢/٢٨ وتفسير الطبري ٨٠/١٠ وتفسير القرطبي ٢٥٩/٥.

قال ابن القيم رحمه الله: «فالرضا بالإهيته: يقتضي الرضا بمحبته وحده، وخوفه، ورجائه، والإنابة والتبتل إليه، وانجذاب الإرادة والحب كلها إليه، فِعل الراضي بمحبوبه كل الرضا، وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضا بربوبيته: يتضمن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضياً بكل ما يفعل به.

فالأول: يتضمن رضاه بما يؤمر به.

والثاني: يتضمن رضاه بما يقدر عليه.

ويلحق الرضا بدينه: إذا قال أو حكم أو أمر أو نهى رضي كل الرضا، ولم يبق في قلبه من حرج من حكمه وسلم له تسليماً، ولو كان مخالفاً لمراد نفسه أو هواها، أو قول مقلده وشيخه وطائفته»[1].

ثانياً ـ طاعة رسول الله ﷺ:

إذا وجب الإيمان برسول الله ﷺ وتصديقه في ما جاء به وجبت طاعته، لأن ذلك ما جاء به من الله تعالى من الأمر بطاعته. فقد تضافرت الأدلة وتواترت على وجوب طاعة الرسول ﷺ، فجعل الله تعال طاعة رسوله طاعته، وقرن طاعته بطاعته.

---

(١) تهذيب المدارج /٣٦٤.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾[3].

وورد عن النبي ﷺ قوله: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ» وتقدم[4].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[5].

وعَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ فَالنَّجَاءَ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا فَانْطَلَقُوا عَلَى مُهْلَتِهِمْ، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ فَذَلِكَ مَثَلُ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٢.
(٢) سورة النور، الآية: ٥٤.
(٣) سورة النساء، الآية: ٨٠.
(٤) تقدم تخريجه في الأدلة ص٢٩.
(٥) أخرجه البخاري ٢٦٥٨/٦ (ح/١٨٥٨) ومسلم ٩٧٥/٢ (ح/١٣٤٧).

مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ. وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ»[(1)].

قال الجصاص في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[(2)] دلالة على أن من ردَّ شيئاً من أوامر الله تعالى أو أوامر رسول الله ﷺ من الإسلام، سواء رده من جهة الشك فيه، أو من جهة ترك القبول والامتناع من التسليم، وذلك يوجب صحة ما ذهب إليه الصحابة في حكمهم بارتداد من امتنع عن أداء الزكاة، وقتلهم وسبي ذراريهم، لأن الله تعالى حكم بأن من لم يسلم للنبي ﷺ قضاءه وحكمه فليس من أهل الإيمان[(3)].

قال القاضي عياض: قال المفسرون والأئمة: طاعة الرسول التزام سنته والتسليم بما جاء به، وما أرسل الله من رسول إلا فرض طاعته على من أرسله إليهم، وقد حكى الله تعالى عن الكفار في دركات جهنم أنهم تمنوا طاعته حيث لا ينفعهم التمني.

قال ابن القيم: «أما الرضا بنبيه ورسوله، فيتضمن كمال الانقياد والتسليم المطلق له، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره البتة»[(4)].

---

(1) أخرجه البخاري ٥/٢٣٧٨ ـ ٢٣٨٨ (ح/٦١١٧) ومسلم ٤/١٧٨٨ (ح/٢٢٨٣).

(2) سورة النساء، الآية: ٦٥.

(3) أحكام القرآن للجصاص ٢/٢٦٠.

(4) تهذيب المدارج /٣٦٤.

حدود الطاعة ومجالات الانضباط:

أولاً: طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ ليس لها حدود فيجب على المسلم طاعتهما مطلقاً في كل ما أمرا به ونهيا عنه.

فقد أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله ﷺ من غير تقييد بقيد.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾﴾[1] وقد بايع الرسول ﷺ أصحابه على ذلك كما مرَّ في حديث عبادة رضي الله عنه وغيره.

ثانياً: طاعة المخلوقين ممن تجب طاعتهم كالأمراء والعلماء والوالدين وغيرهم فتنقسم الطاعة إلى قسمين:

أ ـ من حيث المأمور به.

ب ـ من حيث الإرادة.

الأول ـ الطاعة من حيث المأمور به:

إذا اعتبرنا أن المقصود بأولى الأمر هم الأمراء والعلماء أو ما هو أعم منهم فيمكن أن نقسم طاعة ولي الأمر من حيث المأمور به إلى قسمين:

(أ) الطاعة بالمعروف.

(ب) الطاعة في المعصية. لأن ما يأمر به أولي الأمر إما طاعة أو معصية.

---

(١) سورة محمد، الآية: ٣٣.

● **الطاعة في المعروف**

ما المقصود بالمعروف؟

المعروف في اللغة: اسم مفعول من عرفه يعرفه معرفة وعرفاناً.

وعرَّفه: أي علَّمه بحاسة من الحواس الخمس، وإن كانت المعرفة أخص من العلم.

والمعروف ضد المنكر. وتقول: عرفت على القومِ أعرف، من باب قتل عِرافة بالكسر فأنا عارف: أي مدبر أمرهم وقائم بسياستهم. وتقول: أمرت بالمعروف، وهو الخير والرفق والإحسان[1].

والمعنى الشرعي للمعروف:

وردت لفظة المعروف في القرآن الكريم فيما يقارب أربعين موضعاً، ووردت في السنة في أحاديث كثيرة جداً يصعب حصرها.

قال الراغب: «والمعروف: اسم لكل فعل يُعرف بالعقل أو الشرع حسنه، وضده المنكر، وهو ما ينكر بهما.

وقال الجرجاني: المعروف هو: كل ما يحسن في الشرع[2].

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ

---

(1) المصباح المنير /٤٤ والقاموس المحيط /١٨٠.

(2) التعريفات /١٩٧ ط/ الأولى.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[1].

ولهذا قيل للاقتصاد في الجود معروف، لمّا كان ذلك مستحسناً في العقول وبالشرع نحو: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[2].

ومن هذا يظهر أن المعروف إذا كان يعرف بالشرع فهو كذلك يعرف بالعقل. وهذا مبني على مسألة الحسن والقبح العقليين، وهي مشهورة.

قال ابن القيم مؤكداً ما ذهب إليه الراغب الأصفهاني وراداً على منكري الحسن والقبح: «إذا كان لا معنى عند نفاة الحكمة عن الرب، والحسن والقبح الفطريين للمعروف إلا ما أمر به فصار معروفاً بالأمر فقط، ولا للمنكر إلا ما نهى عنه، فصار منكراً بنهيه فقط. فأي معنى لقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[3].

وهل حاصل ذلك زائد على أن يقال: يأمرهم بما يأمرهم به، وينهاهم بما ينهاهم عنه؟ وهذا كلام يتنزه عنه كلام آحاد العقلاء، فضلاً عن كلام رب العالمين.

وهل دلت الآية إلا على أنه أمرهم بالمعروف الذي تعرفه العقول وتقر بحسنه الفطر، فأمرهم بما هو معروف في نفسه عند

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٢) المفردات في غريب القرآن /٣٣١ وبصائر ذوي التمييز ٥٧/٤ والاستقامة لابن تيمية ٣١١/٢ والآية من سورة النساء: ٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

كل عقل سليم، ونهاهم عما هو منكر في الطباع والعقول، بحيث إذا عرض أمره ونهيه على العقل السليم قبله أعظم قبول وشهد بحسنه»[1].

وبناء على ذلك فكل ما هو مستحسن شرعاً أو عقلاً فهو من المعروف.

غير أن الأمر لا يخلو من إجمال يحتاج إلى تفصيل وتبيين:

فما شرع فهو من المستحسن ومن المعروف لا شك في ذلك.

أما ما يعرفه العقل فهذا فيه تفصيل. فإذا كان ما يعرفه العقل قد عرفه الشرع فهو داخل في الأول. وإذا كان ما عرفه العقل لا يعارضه الشارع فهذا يجوز أن يسمى معروفاً أيضاً.

أما ما عرفه العقل وأنكره الشارع، فهذا منكر لا شك في ذلك، ولا اعتبار للعقل هنا.

ومع أنه من المقرر أن العقل الصحيح لا يعارض النقل الصريح، وقد ألف ابن تيمية كتابه المشهور (درء تعارض العقل والنقل) لتقرير هذا الأمر.

ويؤكد الشوكاني أن المراد بالمعروف: ما كان من الأمور المعروفة شرعاً لا المعروفة في العقل أو العادة، لأن الحقائق الشرعية مقدمة على غيرها على ما تقرر في الأصول[2].

---

(١) التفسير القيم /٢٧٨.

(٢) نيل الأوطار ٤٤٣/٧ وسبل السلام ٣٣٤/٤.

وهذا على افتراض وجود تعارض بين العقل والنقل، فيقدم النقل على العقل.

وعلى هذا فالمعروف يشمل الأحكام التكليفية التالية: الواجب، المندوب، المباح. أما الواجب والمندوب فلأنهما مأمور بهما شرعاً، وأما المباح فلأنه قد أجاز الشرع فعله.

فإذا عرفنا المقصود بالمعروف وأنه ما أمر به الشارع أمراً جازماً وهو الواجب، أو أمر به أمراً غير جازم وهو المندوب، أو خيَّر في فعله أو تركه وهو المباح. فكل ذلك من المعروف.

فما حكم طاعة أولي الأمر بذلك؟

فأما الطاعة في الواجب: كأن يأمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة ونحو ذلك فطاعته واجبة بالإجماع، لأن هذه الأمور واجبة في ذاتها، وولي الأمر منفذ وقائم عليها[1].

وأما الطاعة في المندوب: كأن يأمر ولي الأمر ببناء المساجد والمستشفيات أو شق الطرق وكل ما يحتاج إليه الناس، ومثل ذلك لو نهى عن الإسراف في الولائم والأفراح، أو اختلاط النساء بالرجال. فالطاعة عندئذ واجبة أيضاً، لأن ما أمر به أو نهى عنه قد أمر به الشرع أو نهى عنه في الأصل، ولأن هذه الأمور داخلة دخولاً أولياً في المعروف الذي تجب طاعته فيه[2].

أما الطاعة في المباح: فقد اختلف العلماء في طاعة ولي الأمر في المباح فقال بعضهم: لا تجب الطاعة في المباح، لأنه

(١) منهاج السنة ٣/٣٨٧

(٢) طاعة أولي الأمر ـ عبدالله الطريقي ـ /٢٤.

لا يجوز لأحد أن يحرم ما أحلّه الله تعالى، ولا أن يحل ما حرمه الله تعالى[1].

وقال بعضهم: بل تجب الطاعة لأنه داخل في المعروف الذي شرعت الطاعة فيه[2].

وقال بعضهم: إذا كان فيه ضرر على المأمور به فيجب الامتثال ظاهراً لا باطناً[3].

وقال بعضهم: إنما تجب الطاعة فيما كان لله طاعة، وللمسلمين فيه مصلحة[4].

والذي يظهر أن هناك فرق بين الأمر المباح والمنهي عنه.

فإذا أمر بالمباح مثل كثير من التنظيمات الإدارية، ومثل تعلم العلوم الدنيوية، وتخطيط المدن ونحو ذلك. فهذا يجب امتثاله، لأنه وإن كان في الأصل مباحاً غير واجب، لكنه أصبح واجباً بطلب الولي، ويكون داخلاً في المعروف، إلا إذا كان المباح وسيلة إلى محرم، فإن الوسائل لها حُكم الغايات[5] فلا تجب الطاعة حينئذ في هذا المباح.

أما النهي عن أمر مباح مثل أكل اللحوم، وزراعة بعض الثمار، ومثل تعدد الزوجات وغير ذلك. فهذا محل نظر، بحيث

---

(١) روح المعاني ٥/٦٦.
(٢) تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي ٥/٣٦٥.
(٣) روح المعاني ٥/٦٧.
(٤) تفسير الطبري ٨/٥٠٢ ومعالم السنن للخطابي ٢/٢٦٦.
(٥) الفروق للقوافي ٢/٣٢ وإعلام الموقعين ٣/١٧٥.

يفرق بين النهي الفردي والنهي الجماعي.

فإن كان فردياً أي مقصوداً به أفراداً محدودين، كأن ينهى الولي شخصاً أو أشخاص محدودين عن السفر إلى الخارج، أو عن الزواج من الكتابيات. فإذا كان هذا النهي لمصلحة رآها الولي فيجب طاعته.

ولعلَّ مما يشهد لذلك ما اشتهر عن عمر رضي الله عنه أنه نهى بعض الصحابة عن الزواج بالكتابيات[١].

وإذا كان هذا النهي لشهوة لا لمصلحة، جازت الطاعة ظاهراً لا باطناً.

وإن كان النهي جماعياً أي مقصوداً به جماعة من الناس، وذلك بأن يصدر فيه تعميمات عامة وقوانين منظمة، فهذا لا يطاع فيه لأنه يعتبر بمثابة التشريع المخالف لشرع الله تعالى، لما في ذلك من تحريم الحلال، ولا يعتبر ذلك من الطاعة في المعروف[٢].

ولا بد من التنبيه على أن العبرة بالحق ولو كان حملته قليلون، لأن طاعة الأكثرية في بعض الأحيان مظنة الخطأ والزلل.

قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾[٣].

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي ١٧٢/٧ وتفسير ابن كثير ٢٦٥/١.

(٢) طاعة أولي الأمر /٢٦ الطريقي.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

● **الطاعة في المعصية:**

طاعة ولي الأمر في المعصية. والمقصود فيما يأمر من أفعال محظورة شرعاً. وقد اتفق أهل العلم على أن طاعة ولي الأمر في المعصية بهذا المعنى لا تجوز[1].

وأصل هذا الاتفاق قائم على ما جاء في السنة الصحيحة من النهي عن طاعة ولي الأمر في معصية. وقد تقدم ذكره في الأدلة[2].

قال ابن القيم رحمه الله تعليقاً على حديث آمر السرية الذي أمر أصحابه بدخول النار: وقد تقدم ذكره في الأدلة.

«وفي الحديث دليل على أن من أطاع ولاة الأمر في معصية الله كان عاصياً، وأن ذلك لا يمهد له عذراً عند الله، بل إثم المعصية لا حق له»[3].

عَنْ عَبْدِاللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ»**[4].

وورد أن زياد بن أبيه اسْتَعْمَلَ الْحَكَمَ بْنَ عَمْرٍو وَالْغِفَارِيَّ رضي الله عنه عَلَى خُرَاسَانَ قَالَ فَجَعَلَ عِمْرَانُ يَتَمَنَّاهُ فَلَقِيَهُ

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٢٢٢/١٢.

(٢) تقدم في الأدلة ص٢٨.

(٣) شرح سنن أبي داود مع عون المعبود ٩٠/٧.

(٤) أخرجه البخاري ٢٦١٢/٦ (ح/٦٧٢٥) ومسلم ١٤٦٩/٣ (ح/١٨٣٩).

بِالْبَابِ. فَقَالَ لَقَدْ كَانَ يُعْجِبُنِي أَنْ أَلْقَاكَ هَلْ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ» قَالَ الْحَكَمُ نَعَمْ. قَالَ: فَكَبَّرَ عِمْرَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

وقد أخبرنا الله تعالى عن المطيعين في المعصية أنهم يقولون يوم القيامة: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾[2].

الثاني ـ الطاعة من حيث الإرادة:

تنقسم الطاعة من حيث الإرادة إلى قسمين:

- طاعة اختيارية.
- طاعة اضطرارية.

الطاعة الاختيارية: هي التي تنشأ عن اختيار المطيع الممتثل بدون إكراه فإذا أمره ولي الأمر بشيء، أو نهاه عن شيء، امتثل بمحض إرادته. وقد تكون هذه الطاعة موافقة لهوى النفس وميل القلب، ومن ثم لا يجد مشقة في الامتثال.

وربما كانت غير موافقة لهوى النفس ولا لميل القلب ومن ثم يجد الممتثل مشقة في الامتثال.

وامتثاله عندئذ إما استجابة لأمر الله، أو حياء من الآمر وغيره، أو لما يؤمله من كسب المطامع الدنيوية، أو لما يخشاه

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٦٧/٥ (ح/١٩٠٣٤) والحاكم في المستدرك ٤٤٣/٣ وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٦٧، ٦٨.

من لوم، أو عقاب، أو خسارة دنيوية. وهذا النوع من الطاعة يحاسب عليها المطيع في الدنيا والآخرة.

أما الطاعة الاضطرارية: فهي على خلاف الطاعة الاختيارية.

والاضطرار: مصدر اضطر والاسم منه الضرورة.

وقد اختلف العلماء في تفسيرها، ولكن أشهر ما قيل فيها إنها الضرر النازل مما لا مدفع له[1].

وقيل: الإلجاء إلى ما ليس منه بد[2].

والاضطرار كما قال القرطبي[3]: إما أن يكون بإكراه من ظالم أو بجوع في مخمصة.

والذي يعنينا هنا النوع الأول، وهو الإكراه من ظالم. فما حكم هذه الطاعة التي تصدر عن الفاعل عن طريق الإكراه؟

الإكراه إما أن ينصب على الأقوال أو على الأفعال.

فإذا كان على الأقوال، فإما أن يكون هذا الإكراه بحق. مثل إكراه المرتد بأن يعلن توبته، فهذا الإكراه صحيح، والطاعة واجبة هنا.

وإما أن يكون الإكراه بغير حق. كالإكراه على النطق بالكفر أو سب الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، أو شهادة الزور أو نحو ذلك.

---

(١) التعريفات للجرجاني /١٢٠ ط/ الأولى.

(٢) المصباح المنير /٣٦.

(٣) تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن ٢/٢٢٥.

فإذا كان الإكراه هنا ملجىء ويحصل ضرر أكبر بعصيان الأمر، فالطاعة هنا جائزة افتداء لنفسه، بشرط أن يكون قلبه مطمئناً بالإيمان.

وقصة عمار بن ياسر مثالاً واضحاً على هذا أُوردها للتأسي:

«ويطول العذاب بعمار حتى كان لا يدري ما يقول فيظهر كلمة الكفر على لسانه، وقلبه مطمئن بالإيمان، ويجيء عمار وهو يبكي إلى رسول الله ﷺ فقال له: **«ما وراءك؟»** قال: شرٌ يا رسول الله: نلتُ منك وذكرت آلهتهم بخير.

قال: **«كيف وجدت قلبك؟»**.

قال: مطمئناً بالإيمان. فجعل النبي ﷺ يمسح عينيه بيده ويقول له: **«إن عادوا لك فعُد لهم بما قلت!!»**.

ولهج بعض الناس بأن عماراً كفر، ولكن رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى صدع بالحق فقال: **«كلا إن عماراً مُلىء إيماناً من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه!!»**[(١)].

ثم ينزل الوحي بشهادة السماء على صدق إيمان عمار رضي الله عنه. قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾[(٢)].

---

(١) زاد المعاد ٤/٤٩٥ وانظر تعليق الألباني على فقه السيرة للغزالي ص١٠٨.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

فكانت الآية إعذاراً لهؤلاء المعذبين في الله بأن لا حرج عليهم إن جاروا الكفار بطرف اللسان، ما دام القلب عامراً بالإيمان ورخصة يترخص بها من خاف على نفسه الهلاك»[1].

وإذا كان هذا الإكراه غير ملجىء ولا يحصل به ضرر فلا تجوز الطاعة هنا.

وإذا كان هذا الإكراه على الأفعال مثل الإكراه على قتل معصوم أو تعذيبه فلا تجوز الطاعة بالإجماع[2].

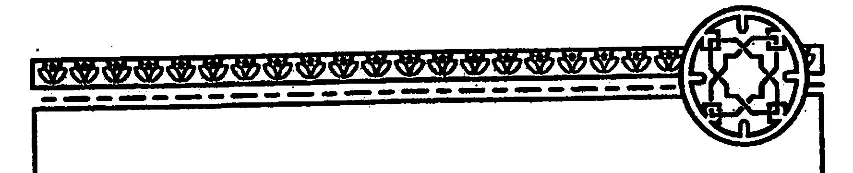
وإن كان الإكراه على الزنا فتجوز الطاعة من المرأة إذا كان هذا الإكراه ملجىء ولا عقوبة عليها ولا إثم. أما الرجل المكره على الزنا ففيه خلاف[3].



(١) انظر دروس السيرة النبوية وعبرها /٦٤ ـ ٦٥ للمؤلف.

(٢) المغني مع الشرح الكبير ٣٣٠/٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨٣/١٠.



مجالات الانضباط وحدوده[1]

الانضباط يشمل كل شيء فكل ما في الوجود منضبطاً. ومن ذلك:

أولاً - الجانب العبادي الديني:

وأساس الانضباط فيه الاستقامة فمن تجاوز الصراط المستقيم فهو غير منضبط.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[2].

وقد شرح النبي ﷺ طريق الله المستقيم من خلال الرسم البياني، حيث خط خطاً مستقيماً ثم خط عن يمينه خطوطاً، وعن يساره خطوطاً. ثم قال هذا صراط الله المستقيم، وهذه الخطوط كل سبيل منها عليه شيطان يدعو إليه[3].

---

(١) انظر أبجديات التصور الحركي /٢٩ وما بعدها لفتحي يكن.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

(٣) انظر للمؤلف كتاب طرائق النبي ﷺ في تعليم أصحابه رضوان الله عليهم.

وعَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِاللَّهِ الثَّقَفِيِّ رضي الله عنه قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ قَالَ: «**قُلْ رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ**» قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا**»[1].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعلب».

وقال عثمان رضي الله عنه: «استقاموا: أخلصوا العمل لله».

وقال الحسن رحمه الله: «**استقاموا على أمر الله، فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته**»[2].

ثانياً ـ الجانب الاجتماعي:

وتقوى الله ضابطة للتصرف في الحياة على كل أشكالها، وفي جميع مجالاتها ومواقعها.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»[3].

---

(١) أخرجه الترمذي ٦٠٧/٤ (ح/٢٤١٠) وقال هذا حديث حسن صحيح، وهو صحيح قاله الألباني في صحيح الجامع ٢٨٧/٢.

(٢) تهذيب مدارج السالكين /٣٣١.

(٣) أخرجه الترمذي ٣٥٥/٤ (ح/١٩٨٧) وقال هذا حديث حسن صحيح، وهو صحيح. صحيح الجامع ١٩١/٢.

قال ابن القيم رحمه الله: «ومراقبة الله في الخواطر، سبب لحفظها في حركات الظواهر، فمن راقب الله في سره، حفظه الله في حركاته في سره وعلانيته»[1].

وفي الحديث ذكر الخلق الحسن بعد ذكره للتقوى، وهي شاملة لكل خلق حسن، من باب ذكر الخاص بعد العام لمزيد من الاهتمام به.

فمعاملة الناس بالخلق الرفيع إنما تأتي من تقوى عامرة بها النفس، ومن خلق يدفع إلى ذلك السلوك القويم.

وتقوى الله دافعة للخصومة بين الناس.

«ولّى أبو بكر رضي الله عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه القضاء، فاستمر سنة ثم جاء إلى أبي بكر فقال: اعفني يا خليفة رسول الله ﷺ عن القضاء.

فقال له أبو بكر مستغرباً ولماذا؟

فقال له عمر: مرّت عليَّ سنة لم يتقاض عندي فيها أحد، قوم عرفوا حق الله فأدوه، وعرفوا حقوق بعضهم فأدوها».

وقد يقع الإنسان في الخطأ، فالخطأ من سنة البشر، إلا أن التوبة ماحية للذنب تُزيله ولا تُبقي له أثراً. واتبع السيئة الحسنة تمحها.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾[2].

---

(١) تهذيب المدارج /٣١١.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

ثالثاً ـ الجانب الإداري والعملي:

قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»[1].

ويكون الإتقان في هذا الجانب:

بإتقان العمل الإداري بمباشرة الحضور في وقته المحدد له دون تأخير.

وإتقان العمل الإداري بإنجاز الأعمال المنوطة بالوقت المحدد، وعدم التسويف، فالتماطل عجز وكسل.

وإتقان العمل الإداري بالإبداع في طرائق التنفيذ والإنجاز والأخذ بها والتجديد فيها.

رابعاً ـ الجانب الاقتصادي:

ضبط الإنفاق ليتوافق مع الدخل هو: أساس المشكلة الاقتصادية. والانضباط بين طرفين هو: منهج الإسلام العظيم.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾[3].

وقصة أحد الخريصين مع الريال عبرة.

---

(١) السلسلة الصحيحة ١٠٦/٣ (ح/١١١٣).

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٧.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.

«يُروى أن عاملاً من المشهورين بالحرص على المال كان يعمل في شركة أرامكو للبترول في السعودية في الأربعينات من هذا القرن، وكان يستلم أجرته اليومية بالريال الفضة، فإذا استلم الريال يحركه بيده نحو الشمس، ثم يدفعه بسرعة إلى كيس يحمله بين ثيابه، ويتمتم ببعض الكلمات.

فسأله أحد زملائه عن ماذا يقول؟ فقال اتركها على الله. فألحّ عليه. فقال: أقول للريال هذه آخر مرة ترى فيها الشمس، والله ما تراها مرة أخرى إلاً في بلدي».

خامساً ـ الجانب السياسي:

أهم التصورات التي يقوم عليها العمل السياسي في الإسلام هي: النظرة إلى الإنسان وكيفية التعامل معه.

ونظرة الإسلام تقوم على مجموعة من المبادىء، أهمها:

- البشر عباد الله، فهم سواء في الإنسانية، حيث خلقهم أحراراً.
- أن المسلمين أمة واحدة لا فرق بينهم.
- التفاضل بينهم مبني على أمر يقدر البشر على تحقيقه. وهو التقوى.
- نبذ الإسلام العنصرية بكل صورها وأشكالها.
- الناس معادن بما يملكون من سلوكيات التعامل الحضاري.
- التوازن في التعامل بين متطلبات الفرد والمجتمع والعكس.

مظاهر كمال الطاعة والانضباط:

أولاً: اطلاع الإدارة الآمرة بآخر التطورات المتعلقة بالأمر:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾[1].

وورد عن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم تطبيق ذلك:

فهذا مصعب بن عمير رضي الله عنه عندما رجع من المدينة إلى مكة بعد مهمته الدعوية التي كلفه بها رسول الله ﷺ في دعوته لأهل المدينة وتبليغه للدعوة وتعليمهم الإسلام. اتجه إلى رسول الله ﷺ قبل أن يذهب إلى أمه، وقد كان أبرَّ شاب بمكة بأمه.

فقالت له أمه: «يا عاق أتقدم بلداً أنا فيه لا تبدأ بي؟».

فقال: «ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ»[2].

وكل جهد يبذل يصغر أمام تحقيق الهدف الثمين، وأغلى الأهداف وأعلاها هو طلب رضوان الله تعالى بنصر دينه، وتبليغ دعوته.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ

---

(١) النساء: ٨٣.

(٢) الطبقات الكبرى ٣/١١٩ لابن سعد.

مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾[1].

ثانياً ـ الصبر والمصابرة والتحمل حتى يقع التنفيذ للأمر على النحو الذي صدر به دون إخلال أو تعطيل أو تجاوز:

وأول الصبر هو: الصبر على عثرات الطريق

وطريق الإيمان طريق الابتلاء والصبر والتحمل لتزكو النفوس.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾[3].

عَنْ جُنْدُبِ بْنِ مَكِيثٍ الْجُهَنِيِّ قَالَ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَالِبَ بْنَ عَبْدِاللَّهِ الْكَلْبِيَّ كَلْبَ لَيْثٍ إِلَى بَنِي مُلَوَّحٍ بِالْكَدِيدِ وَأَمَرَهُ أَنْ يُغِيرَ عَلَيْهِمْ. فَخَرَجَ فَكُنْتُ فِي سَرِيَّتِهِ فَمَضَيْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِقُدَيْدٍ

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٦.

(٣) سورة العنكبوت، الآيات: ١ ـ ٣.

لَقِينَا بِهِ الْحَارِثَ بْنَ مَالِكٍ وَهُوَ ابْنُ الْبَرْصَاءِ اللَّيْثِيُّ فَأَخَذْنَاهُ. فَقَالَ إِنَّمَا جِئْتُ لِأُسْلِمَ. فَقَالَ غَالِبُ بْنُ عَبْدِاللَّهِ إِنْ كُنْتَ إِنَّمَا جِئْتَ مُسْلِماً فَلَنْ يَضُرَّكَ رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ اسْتَوْثَقْنَا مِنْكَ. قَالَ فَأَوْثَقَهُ رِبَاطاً ثُمَّ خَلَّفَ عَلَيْهِ رَجُلاً أَسْوَدَ كَانَ مَعَنَا. فَقَالَ امْكُثْ مَعَهُ حَتَّى نَمُرَّ عَلَيْكَ، فَإِنْ نَازَعَكَ فَاجْتَزَّ رَأْسَهُ.

قَالَ ثُمَّ مَضَيْنَا حَتَّى أَتَيْنَا بَطْنَ الْكَدِيدِ فَنَزَلْنَا عُشَيَّةً بَعْدَ الْعَصْرِ فَبَعَثَنِي أَصْحَابِي فِي رَبِيئَةٍ فَعَمَدْتُ إِلَى تَلٍّ يُطْلِعُنِي عَلَى الْحَاضِرِ فَانْبَطَحْتُ عَلَيْهِ وَذَلِكَ الْمَغْرِبَ. فَخَرَجَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَنَظَرَ فَرَآنِي مُنْبَطِحاً عَلَى التَّلِّ. فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى عَلَى هَذَا التَّلِّ سَوَاداً مَا رَأَيْتُهُ أَوَّلَ النَّهَارِ فَانْظُرِي لاَ تَكُونُ الْكِلاَبُ اجْتَرَّتْ بَعْضَ أَوْعِيَتِكِ. قَالَ فَنَظَرَتْ فَقَالَتْ لاَ وَاللَّهِ مَا أَفْقِدُ شَيْئاً. قَالَ فَنَاوِلِينِي قَوْسِي وَسَهْمَيْنِ مِنْ كِنَانَتِي. قَالَ فَنَاوَلَتْهُ فَرَمَانِي بِسَهْمٍ فَوَضَعَهُ فِي جَنْبِي، قَالَ فَنَزَعْتُهُ فَوَضَعْتُهُ وَلَمْ أَتَحَرَّكْ ثُمَّ رَمَانِي بِآخَرَ فَوَضَعَهُ فِي رَأْسِ مَنْكِبِي فَنَزَعْتُهُ فَوَضَعْتُهُ وَلَمْ أَتَحَرَّكْ. فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ وَاللَّهِ لَقَدْ خَالَطَهُ سَهْمَايَ وَلَوْ كَانَ دَابَّةً لَتَحَرَّكَ فَإِذَا أَصْبَحْتِ فَابْتَغِي سَهْمَيَّ فَخُذِيهِمَا لاَ تَمْضُغُهُمَا عَلَيَّ الْكِلاَبُ.

قَالَ وَأَمْهَلْنَاهُمْ حَتَّى رَاحَتْ رَائِحَتُهُمْ حَتَّى إِذَا احْتَلَبُوا وَعَطَنُوا أَوْ سَكَنُوا وَذَهَبَتْ عَتْمَةٌ مِنَ اللَّيْلِ شَنَنَّا عَلَيْهِمُ الْغَارَةَ فَقَتَلْنَا مَنْ قَتَلْنَا مِنْهُمْ وَاسْتَقْنَا النَّعَمَ فَتَوَجَّهْنَا قَافِلِينَ وَخَرَجَ صَرِيخُ الْقَوْمِ إِلَى قَوْمِهِمْ مُغَوِّثاً وَخَرَجْنَا سِرَاعاً حَتَّى نَمُرَّ بِالْحَارِثِ ابْنِ الْبَرْصَاءِ وَصَاحِبِهِ فَانْطَلَقْنَا بِهِ مَعَنَا وَأَتَانَا صَرِيخُ النَّاسِ. فَجَاءَنَا مَا لاَ قِبَلَ لَنَا بِهِ حَتَّى إِذَا

لَمْ يَكُنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ إلاَّ بَطْنُ الْوَادِي أَقْبَلَ سَيْلٌ حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ حَيْثُ شَاءَ مَا رَأَيْنَا قَبْلَ ذَلِكَ مَطَراً وَلاَ حَالاً فَجَاءَ بِمَا لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَقُومَ عَلَيْهِ فَلَقَدْ رَأَيْنَاهُمْ وُقُوفاً يَنْظُرُونَ إِلَيْنَا مَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ وَنَحْنُ نُحَوِّزُهَا سِرَاعاً حَتَّى أَسْنَدْنَاهَا فِي الْمَشْلَلِ ثُمَّ حَدَرْنَاهَا عَنَّا فَأَعْجَزْنَا الْقَوْمَ بِمَا فِي أَيْدِينَا[(١)].

ثالثاً ـ فهم الأمر الصادر فهماً دقيقاً، ضماناً لسلامة ودقة التنفيذ:

عندما لا تجد التنفيذ متوافقاً مع الأمر الصادر، فلا بد أن الأمر كان غامضاً أو محتملاً، أو أن اللغة المستخدمة لم تكن واضحة أو مدركة للمأمورين.

وعند سلامة ذلك فقد يكون المأمورون لم يرتقوا إلى لغة الأمر أو فهمه فحصل الخلل، وقد قيل «القيادة والأستاذية متلازمتان» فكن محدداً وتأكد أن المأمور يعلم ما هو المطلوب منه.

فالإجمال يضيّع العمل، والاعتماد على الفهم غير الواضح يوجد الاحتمال، والاحتمال يوقع في الخطأ. فلا تكن كما قال الشاعر:

أكلمه عمرواً فيسمع خالداً ... فيكتبه بكراً وينطقه زيدا

---

(١) أخرجه أحمد (ح/١٥٢٨٣) والبداية والنهاية ٤/٢٢٢ ـ ٢٢٣.

فلا بد من إيضاح الأمور بجلاء حتى لا يترك مجالاً للتأويل السيء. فالتأويل السيء مدخل للشيطان على قلب الإنسان، بل هو أهم موارده، حيث أن الإنسان واقع بين الشبهة والشهوة.

والتأويل مدخل إلى الوقوع في الشبهة. لذا ترى النبي ﷺ وهو يحرص من خلال القصة التالية على قلوب أصحابه رضوان الله عليهم أن يقعوا فريسة الشيطان، يوقعهم في شرٍّ أو تأويل فاسدٍ، لا بد أن يسلموا منه ويتقوه.

ومثاله قول الرسول ﷺ للصحابيين اللذين رأوه مع امرأة فقال لهما إنها صفية أم المؤمنين رضي الله عنها.

عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ صَفِيَّةَ رضي الله عنها زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَزُورُهُ فِي اعْتِكَافِهِ فِي الْمَسْجِدِ فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ.

فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ مَعَهَا يَقْلِبُهَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ الْمَسْجِدِ عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ، مَرَّ رَجُلاَنِ مِنَ الأَنْصَارِ فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ: **«عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ»** فَقَالاَ سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنَ الإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئاً»**[1].

(١) أخرجه البخاري ٢/٧١٥ ـ ٧١٦ (ح/١٩٣٠) ومسلم ٤/١٧١٢ (ح/٢١٧٥).

ويوجه إليه الطلب جزماً ولا يتركه مائعاً، أو تكون فيه متردداً. ونفذ هذا الأمر من اللحظة الأولى.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: **«لأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلاً يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ»** قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مَا أَحْبَبْتُ الإِمَارَةَ إِلاَّ يَوْمَئِذٍ قَالَ فَتَسَاوَرْتُ لَهَا رَجَاءَ أَنْ أُدْعَى لَهَا فَقَال فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا وَقَالَ: **«امْشِ وَلاَ تَلْتَفِتْ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ»**. قَالَ فَسَارَ عَلِيٌّ شَيْئاً ثُمَّ وَقَفَ وَلَمْ يَلْتَفِتْ، فَصَرَخَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى مَاذَا أُقَاتِلُ النَّاسَ؟ قَالَ: **«قَاتِلْهُمْ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ مَنَعُوا مِنْكَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»**[(١)].

ومنه الاستفسار عن كيفية التنفيذ:

عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذَا بَعَثْتَنِي أَكُونُ كَالسِّكَّةِ الْمُحْمَاةِ أَم الشَّاهِدُ يَرَى مَا لا يَرَى الْغَائِبُ قَالَ: **«الشَّاهِدُ يَرَى مَا لاَ يَرَى الْغَائِبُ»**[(٢)].

رابعاً ـ الاستجابة الفورية للأمر، وإن كان على خلاف الرأي وما تهوى النفس:

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا

---

(١) أخرجه البخاري ١٥٤٢/٤ (ح/٣٩٧٣) ومسلم ١٨٧١/٤ ـ ١٨٧٢ (ح/٢٤٠٥) واللفظ له.

(٢) أخرجه أحمد (ح/٥٩٤) والسيرة النبوية لابن كثير ٦٠٢/٤ ـ ٦٠٣.

دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾[١].

وقصة حذيفة في ليلة الأحزاب وتنفيذه للأمر الصادر إليه بالتعيين. وقد تقدم الحديث عنها فيما سبق[٢].

خامساً ـ بذل النصيحة:

عندما أراد النبي ﷺ أن يرسل عمراً رضي الله عنه وهو بالحديبية إلى مكة، ليبلغ قريشاً أنه إنما جاء معتمراً معظماً للبيت، ولم يأت لقتال. نصحه عمر بأن يرسل عثمان رضي الله عنه لقوة قرابته بمكة حيث ستتوفر له الحماية من الأذى[٣]. وأمر النصيحة بين وظاهر[٤].

سادساً ـ الاستئذان:

هو أخذ الإذن عند أي تصرف من شأنه أن يُخل بوحدة الصف وتماسكه.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

(٢) أخرجه مسلم ١٤١٤/٣ (ح/١٧٨٨) وهو في ص٥١، ٥٢.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ٣١٨/٣ ـ ٣١٩ عن ابن إسحاق. ولا يقول أحد لماذا لم ينفذ عمر مع أن حذيفة نفذ في ليلة الأحزاب ما طُلب منه، فإن عمر رضي الله عنه في موقع المستشار للنبي ﷺ وحذيفة في موقع الجندية.

(٤) انظر كتيب «النصيحة ليست نقداً» للمؤلف.

يَسْتَـْذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسْتَـْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾[1].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنْ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ ﷺ فِي الْعُمْرَةِ فَقَالَ: «**أَيْ أُخَيَّ أَشْرِكْنَا فِي دُعَائِكَ وَلاَ تَنْسَنَا**».

وعن أبي داود قَالَ: «**لاَ تَنْسَنَا يَا أُخَيَّ مِنْ دُعَائِكَ**».

فَقَالَ عمر: كَلِمَةً مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لِي بِهَا الدُّنْيَا[2].

وعند أبي داود في آخر: قَالَ شُعْبَةُ ثُمَّ لَقِيتُ عَاصِماً بَعْدُ بِالْمَدِينَةِ فَحَدَّثَنِيهِ، وَقَالَ أَشْرِكْنَا يَا أُخَيَّ فِي دُعَائِكَ.

سابعاً ـ الحرص على أمن وسلامة الإدارة:

اتحاد موقع حصين للقيادة:

في غزوة بدر الكبرى عندما استقروا في المكان الذي نزل فيه النبي ﷺ قال سعد بن معاذ رضي الله عنه مقترحاً: يا نبي الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا. فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما

---

(١) سورة النور، الآية: ٦٢.

(٢) أخرجه الترمذي ٥/٥٥٩ (ح/٣٥٦٢) وقال حسن صحيح، وأخرجه أبي داود ٢/١٦٩ (ح/١٤٩٨) وقال الألباني: ضعيف. ضعيف الجامع /٣٩٤ وضعيف أبي داود /١١٢ ـ ١١٣.

أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن ورائنا من قومنا. فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك. فوافق الرسول ﷺ على هذا الاقتراح[1].

حراسة النبي ﷺ في المدينة بعد غزوة بدر في المدينة:

وفيه قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع عمير بن وهب الجمحي عندما قدم لقتل النبي ﷺ ومنعه من ذلك. وقد طلب عمر من الصحابة رضوان الله عليهم أن يبقوا عند رسول الله ﷺ لحمايته وحراسته[2].

حراسة أبي أيوب رضي الله عنه في خيبر:

وبعد انتهاء المعركة سبيت النساء والذراري، منهن صفية بنت حيي بن أخطب، التي اشتراها الرسول ﷺ من دحية رضي الله عنه، حيث وقعت في سهمه فأعتقها وتزوجها، وقد دخل عليها في طريق العودة إلى المدينة. وتطوع لحراسته في تلك الليلة أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه خوفاً على رسول الله ﷺ من صفية أن تعمل له شيئاً[3].

---

(١) مجمع الزوائد ٨٤/٦ وقال رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٤٨٦/٢ - ٤٨٧.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢٨/٤ وصححه، ووافقه الذهبي.

ثامناً ـ المبادرة بطرح أو اقتراح ما هو نافع ومفيد:

وصل المسلمون إلى ميدان معركة بدر فنزل النبي ﷺ في طرف الوادي فجاءه الحباب بن المنذر رضي الله عنه فأشار عليه بأن يترك مياه بدر خلفه لئلا يستفيد منها المشركون. فقبل النبي ﷺ مشورته[1].

وفي غزوة الأحزاب علم ﷺ بما أجمع عليه عدوه من كيد ومكر فاستشار أصحابه في طريقة المواجهة لذلك الخطر.

فأفاد سلمان الفارسي رضي الله عنه المسلمين بحكمة من أفعال الفرس في بلادهم إذا دهمهم العدو، فذكر أنهم يحفرون حولهم خندقاً لا يقدر العدو على تجاوزه والوصول إليهم بسببه. فوافق رسول الله ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم على الفكرة، وبدأوا تنفيذها[2].

ومشورة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في أسرى بدر:

عن ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنهما قَالَ: « . . .فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ وَأَسَرُوا سَبْعِينَ. فَلَمَّا أَسَرُوا الْأُسَارَى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: «**مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلاَءِ الْأُسَارَى؟**».

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ ٢/٣١٢ ـ ٣١٣ بإسناد منقطع وبإسناد مرسل وانظر مرويات غزوة بدر /١٦٤ ـ ١٦٥ للمؤلف. والسيرة النبوية من مصادرها الأصلية /٣٤٥.

(٢) دروس السيرة النبوية وعبرها /٢٠٦ للمؤلف.

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا نَبِيَّ اللَّهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلإِسْلاَمِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟»**.

قُلْتُ لاَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلاَنٍ نَسِيباً لِعُمَرَ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ. فَإِنَّ هَؤُلاَءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا.

فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ.

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ، فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاء، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ»** شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ. وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ فَأَحَلَّ اللَّهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ»[1].

---

(١) أخرجه مسلم ٣/١٣٨٥ (ح/١٧٦٣).

والمرأة التي أشارت عليه ﷺ بصنع المنبر.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُومُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى شَجَرَةٍ أَوْ نَخْلَةٍ. فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ أَوْ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلاَ نَجْعَلُ لَكَ مِنْبَراً. قَالَ: «إِنْ شِئْتُمْ» فَجَعَلُوا لَهُ مِنْبَراً فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ دُفِعَ إِلَى الْمِنْبَرِ فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ صِيَاحَ الصَّبِيِّ ثُمَّ نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّنُ قَالَ كَانَتْ تَبْكِي عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ عِنْدَهَا(١).

تاسعاً ـ ترك الاجتهاد مع النص:

الأمر الإداري أو الخطة المتفق عليها في موضع النص لا يجوز الخروج عنه. وقصة عمر رضي الله عنه في يوم الحديبية تؤكد ذلك:

(. . .فجاء عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ؟ فَقَالَ: «**بَلَى**». فَقَالَ: أَلَيْسَ قَتْلانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلاَهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: «**بَلَى**». قَالَ: فَعَلاَمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا أَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ.

فَقَالَ: «**يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ أَبَداً**».

---

(١) أخرجه البخاري ١٣١٤/٣ (ح/٣٣٩١).

فَانْطَلَقَ عُمَرُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللَّهُ أَبداً. فَنَزَلَتْ سُورَةُ الْفَتْحِ فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى عُمَرَ إِلَى آخِرِهَا. فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَفَتْحٌ هُوَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»(1).

وفي محاولة تخفيف الضغط على المسلمين في غزوة الأحزاب ومراجعة سعد بن معاذ وبيانه ما يوضح هذا الأمر.

ثم رأى رسول الله ﷺ أن يخذِّل بين الأحزاب ويفرق جمعهم فبعث إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف المري - وهما قائدا غطفان - وساومهما على أن يأخذا ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما فقبلا. ولكن الرسول ﷺ ما كان ليبرم أمراً لم ينزل فيه وحي حتى يستشير أصحابه رضوان الله عليهم جميعاً.

فأرسل إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضي الله عنهما فذكر لهما ذلك. فقالا: يا رسول الله أمراً تحبه فنصنعه؟ أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به؟ أم شيئاً تصنعه لنا؟ فقال: «**بل شيء أصنعه لكم. والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحد وكالبوكم - اجتمعوا عليكم من كل جانب - فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم إلى أمر ما**».

---

(1) أخرجه البخاري ٢/٩٧٤ (ح/٢٥٨٣) ومسلم ٣/١٤١١ (ح/١٧٨٥).

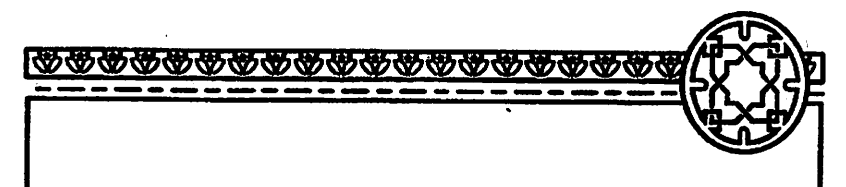
فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟!!.

والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فقال رسول الله ﷺ: **«فأنت وذاك»**[1].



---

(١) كشف الأستار ٣٣١/١، ٣٣٢ ومجمع الزوائد ١٣٢/٦ وقال رواه البزار والطبراني ورجال البزار والطبراني فيهما محمد بن عمرو وحديثه حسن وبقية رجاله ثقات.



تنمية الانضباط
والطاعة والدور التربوي فيهما

طريقة تنمية الانضباط والطاعة وما يؤديه ذلك من دور تربوي في البناء هو الهدف الذي يجب أن يتحقق في نهاية المطاف. ووسائل وطرائق ذلك متعددة ومتنوعة أقف بك على أهمها من خلال النقاط التالية:

١ ـ العيش في المحاضن التربوية وفقاً للمنهج التربوي:

إعمل على بناء علاقة بالذي تريد تربيته:

● كلما كانت رابطة الحب في الله قوية كانت الاستجابة أعظم. وفتح القلوب ومعرفة ظروف أصحابها يحتاج إلى يد حانية، ومعرفة الأحوال التي يعيشها الفرد جزء من علاجه، والتكافل والتعاون أساس الدعوات.

● سلطان الحب لا يقاوم، والمؤمن إلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، والقدرة القيادية التامة تظهر في القدرة على الجمع والتواصل وإشاعة الأخوة وممارستها.

والوصية: «سلطان الحب لا يقاوم، فكن أنت ذلك السلطان».

قال ابن القيم رحمه الله: «إذا علقت شروش[1] المعرفة في أرض القلب نبتت فيه شجرة المحبة، فإذا تمكنت وقويت أثمرت الطاعة، فلا تزال الشجرة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها»[2].

وقال قال الشاعر:

تعصي الإله وأن تظهر حبه   هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته   إن المحب لمن يحب مطيع[3]

● أوجد أوقاتاً أخرى لتدعيم المحبة فقد يصطنع المرء ما يريد في أوقات الفراغ أو اللقاء المحدود النادر، إلا أن طول الاحتكاك مثلاً في السفر يُظهر مدى الصدق في المظهر من عدمه، والقلوب تتقارب وتتآلف بطول الخلطة، والسفر محك الأخلاق ومعرفة الثابت منها من المزيف.

● وكن مستجيباً بقدر ما تعطي من التربية والبناء تأخذ «إذا حككت لي ظهري، فسوف أحك لك ظهرك»[4].

● كلما كنت أكثر تعاوناً مع من تربيه وأكثر حساسية لحاجاته ولعلامات التوتر عليه كلما كان مطيعاً لك أكثر «إذا أتعبتك أرحتك، وإذا أرحتك أتعبتك».

---

(١) شروش: أي جذور النبات وأصول الشيء.
(٢) الفوائد /٤٩.
(٣) الآداب الشرعية ١/١٥٤ ابن مفلح.
(٤) مشكلات الشباب /٤٠٦.

● **وتبدأ التربية عند المسلم:**

من (لتسون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم)[1] والالتزام بالإسلام وتطبيقه ودعوة الناس إليه يبدأ من ثبات المسلم عليه وكونه قدوة فيه. وينتهي بدفع الفرد لنفسه كلما خطر لها الوسواس الخناس بأن تمسكه بدينه اختياري ولا يمثل ثابتة من الثوابت في حياته.

● وتظهر أهمية الجانب التربوي في إيجاد الانضباط، فلا بد من تربية للجميع **أفراداً** وقادة عليه، وعدم التساهل فيه.

٢ ـ بالتدريب:

راع الفروق الفردية:

وضع القواعد التي تتلاءم مع شخصية المراد تربيته، ومستوى نضجه، وظروفه الخاصة، وهي قضايا يجب أن تعرف في المرحلة الأولى للتربية. ولا بد من تربية الفرد على الانضباط لتأتي المخرجات مماثلة للمدخلات.

وينبغي لبرامج التدريب ما يأتي:

أن تكون دورية: أي تتكرر بانتظام.

أن تكون متنوعة: فلا تقتصر على جانب واحد بل شاملة.

أن تكون حقيقية: فلا يُدعى إلى اجتماعات استعراضية تنفض عن لا شيء.

---

(١) أخرجه البخاري ٢٥٣/١ (ح/٦٨٥) ومسلم ٣٢٤/١ (ح/٤٣٦)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

أن تتخللها مناورات: التهيئة للمواقف المحتملة واختبار إدراكه لها.

٣ - بتشريع لائحة الانضباط:

ولا بد من لائحة تضبط العمل، وتبين الحقوق والواجبات والجزاءات، وإلا كان الأمر مزاجياً.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾(١).

ولا بد من تحديد جهة تفصل فيما يُعرض عليها من إشكالات قد تحدث أثناء تأدية العمل.

٤ - بتوفير القدوات:

والقدوة العظمى للمسلم هو محمد ﷺ فإذا قصر بصرك أن ترى قدوة في واقعك، فارفع بصرك قليلاً لترى القدوة العظمى محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾(٣).

والمفترض أن القيمين على شؤون الانضباط منضبطين.

والمربي الحق هو: من يستثمر في الأتباع ملكة المحاكاة

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

فيكون لهم قدوة، ولا يركن إلى ما يخوله منصبه أو لوائحه في التنفيذ أو ترهيب المتململين.

وأصحاب النبي ﷺ قدوة لأمته:

عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قُلْنَا لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَهُ الْعِشَاءَ. قَالَ فَجَلَسْنَا فَخَرَجَ عَلَيْنَا. فَقَالَ: «مَا زِلْتُمْ هَاهُنَا؟» قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ ثُمَّ قُلْنَا نَجْلِسُ حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَكَ الْعِشَاءَ.

قَالَ: «أَحْسَنْتُمْ أو أَصَبْتُمْ». قَالَ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَكَانَ كَثِيراً مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ.

فَقَالَ: «النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ»[1].

٥ ـ بوضع الرجل المناسب في المكان المناسب:

اكتشف طاقاته وشجعها وابحث في العوامل التي تحجب ظهور الطاقات في الأفراد. فقد تكون طاقات كثيرة في الأفراد لا يعلمون هم أنفسهم عنها بسبب وجود عوامل تمنع ظهورها. فلا بد للمسؤولين من القيام بعمليات بحث في هذه العوامل لإزالتها خاصة في المتميزين.

وأعطه دوراً فعدم وجود دور واضح له في المؤسسة يجعله راكداً غير متفاعل، ووجود مثل هذا الدور يكون دافعاً من دوافع

---

(١) أخرجه مسلم ١٩٦١/٤ (ح/٢٥٣١).

العمل والطاعة والانضباط، واستغلال الجهد في مصلحة المؤسسة

وعدم الالتزام بهذا ينتج عنه:

- هدر لطاقة كفء إن وضع في مكان أقل من منزلته.
- أو توسيد الأمر لغير أهله إذا وضع في درجة أعلى من درجته.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ مَتَى السَّاعَةُ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ لَمْ يَسْمَعْ حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: **«أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ»**.

قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: **«فَإِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»**.

قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا. قَالَ: **«إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»**[١].

٦ ـ بتوازن العمل مع العاملين:

لنشر الانضباط لا بد من توازن دقيق بين طرفي نقيض.

الطرف الأول: توسيع التربية إلى درجة تصبيه بشحة المربين

---

(١) أخرجه البخاري ٣٣/١ (ح/٥٩).

فيوسد الأمر إلى الموجود لملء الفراغ على قاعدة «ليه حطوك أستاذ؟ قال: ما حصلوا غيري».

والمؤمن يدعو ربه قائلاً: ﴿...رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

والطرف الثاني: تراكم العمل بيد فئة محدودة تترك الباقين بلا عمل فيملؤا فراغهم بالهوى، وبعض الأحيان بالمشاغبة والنقد.

عَنْ مَعْمَرِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«لاَ يَحْتَكِرُ إلاَّ خَاطِىءٌ»**[2].

والوصية: اطلب على قدر القدرة. اطلب عدداً قليلاً من المطالب،فكلما وضعت مطالب أكثر كانت المقاومة أكبر.

٧ ـ بمتابعة الأفراد:

المؤمن يقبل الرقابة الأخوية بدون حساسية، فالمؤمن مرآة أخيه، وليس مترصداً لأخطائه. بل هي مرآة يرى فيها خلله ليصلحه

والمتابعة هي العين المراقبة من أجل الاطمئنان على صحة مسيرة التربية، وليست تلك العين المتصيدة للأخطاء.

ومرور الأزمات يخلف آثاراً غير انضباطية، فلا بد من

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) أخرجه مسلم ١٢٢٨/٣ (ح/١٦٠٥).

تقديم المساعدة لتجاوز تلك الأزمات عند وقوعها.

عن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رضي الله عنهما يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»[1].

وعند المتابعة اذكر الأسباب فذكر الأسباب يساعد على الفهم والاستجابة وكلما كانت طلباتك وأوامرك واقعية أكثر كانت الاستجابة أكبر.

وتوقع الطاعة والانضباط فعند صدور الأمر تصرف وكأنك تتوقع الطاعة المطلقة ولا تشعره أنك تتوقع خلاف ذلك، ولا تتركه يتردد. وعند حدوث ذلك منه ألغ مهمته فإنه لن ينجح فيها.

ومما تعلمته من أبي الشيخ محمد أحمد العليمي رحمه الله أنه كان يرسلني وأنا صغير في المدرسة الإعدادية لأشتري له بعض الطلبات ويعطيني قيمتها، ويطلب مني أن أشتري له أجود أنواعها.

فكنت في بعض الأحيان أقول له: فإذا لم أجد الطلب الذي تريد فماذا أفعل؟

فيرد علي ويقول: لا تذهب، وهات القيمة، فإنك لن تجد ما نريد.

---

(١) أخرجه البخاري ٢٢٣٨/٥ (ح/٥٦٦٥) ومسلم ١٩٩٩/٤ (ح/٢٥٨٦).

تعلمت ذلك منه فصرت إذا كلفت أحداً بمهمة أو عمل فردً علي بمثل ذلك أُلغي تلك المهمة أو ذلك العمل، وأكلف به شخصاً آخر.

وانتبه لأسلوبك فابتعد عن أسلوب جرح المشاعر.

مثل: «أنت لا يعتمد عليك»، «أنت دائماً متردد»، «أنت محمول لا حامل»، «أنت ركن الكسل».

وابتعد عن الأسلوب الغاضب العدائي.

مثل: «إنني غاضب منك»، «إنني أكرهك في الله».

وابتعد عن التعليقات الناقدة.

مثل: «لا تكن كسولاً»، «لا تكن نائماً جامداً».

وكن هادئاً وواقعياً ومسترخياً عند إعطاء الأمر.

ولا تخبر الناس أبداً كيف ينجزون الأشياء، أخبرهم فقط ماذا ينجزون، وسوف يفاجئونك ببراعتهم وإبداعهم.

٨ ـ بسرعة حسم الأمور:

إصلاح الأعطاب التي تقع في الممارسة دليل انضباط، فغير المنضبط هو الذي لا يُصلح أعطابه.

والمشاكل تبدأ صغيرة ومحددة تحتاج إلى: (كلمة، قرار،

زيارة، لقاء، اعتذار، متابعة، نصيحة، مساواة، توضيح ومكاشفة) فتزول وتذهب.

وإذا تم تركها حتى تكبر فإنها تبدد الطاقات وتضيع الأوقات.

وقد وصف الله نفسه بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾[2].

وفي الآية الأخيرة نلحظ أن الدعوة لسرعة الحسم لا تعني الوقوع في مطب التهور.

«لا تكن متسلطاً:

- ابتعد عن إصدار الأوامر بكثرة.
- اترك من تربيه يقترح العمل ثم اطلب منه تنفيذه.
- أعط فرصة لإبداء الرأي أو التعبير عن المشاعر.

إن عبارة «أنا أكره غسل الصحون» أو عبارة «سئمت من تنظيف الغرفة» لا تعني لا أفعل، وإنما هي مشاعر لا مانع من السماح لها إذا لم تؤدي إلى تعطيل العمل.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٤١.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٥.

خذ بنظرية «انعكاس التفكير» في صناعة القرار لديويز والتي تعتمد على خمسة خطوات:

- اعرف ثم حدد المشكلة.
- حلل المشكلة التي حدثت «السبب، الآثار المترتبة، الحلول، الهدف.
- اقتراح بعض الحلول.
- قيّم ما اقترحت ثم اختر أفضل الحلول.
- أنجز ثم قيّم الإنجاز.

وحاول أن تضع البدائل في كل تكليف وبرنامج، ومثالاً على ذلك عند تكليف أحد الأفراد بالقيام بعمل ما، لا بد من تعيين بديل للقيام بالعمل نفسه عندما يحدث طارىء للمكلف فيه، وإذا ما تم الاتفاق مع محاضر مثلاً لإلقاء محاضرة لا بد من وضع البديل في حالة الاعتذار»[1].

٩ ـ بإجراء الاختبارات:

والاختبار والابتلاء منهج رباني.

قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾[2].

---

(١) فن القيادة.
(٢) سورة الملك، الآيتان: ١، ٢.

ويقابل الفرد الاختبار على أنه من مؤسسة تربوية حريصة عليه، وليس من جهة مداهمة تبحث عن المثالب أو تشمت به.

والمؤسسة التربوية عندما تقوم بذلك تريد وقاية الأفراد من حر أو برد الظروف المحيطة بهم.

١٠ - بالدعاء والتوبة:

التوبة هي: تجديد العزم، وتصفية الصفحة الخطأ في الممارسة.

وصحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم الجازم على ترك معاودته.

قال كعب بن مالك رضي الله عنه أحد الثلاثة الذين خُلِّفوا في غزوة تبوك: «يا رسول الله إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت، قال فوالله ما علمت أن أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث أحسن مما أبلاني الله به»[(١)].

والدعاء هو: الاتصال بالله ذي القوة المطلقة، والمستجيب للدعاء أن يمدنا بالنصر والثبات والصبر والانضباط.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ

---

(١) أخرجه البخاري ١٦٠٣/٤ (ح/٤١٥٦) ومسلم ٢١٢٠/٤ (ح/٢٧٦٩).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٠.

وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[1].

سهام الليل صائبة المرامي إذا وترت بأوتار الخشوع

١١ ـ سلّمه لمربي آخر عند فشلك:

وفي حالة عدم الاستجابة حوله إلى مرب آخر فقد يكون هناك تفاوت شاسع بين المأمور والآمر في عدة جوانب. منها الجانب التعليمي، فقد يكون المأمور ذو مستوى علمي أرفع من الآمر فيصعب عليه التلقي ممن هو دونه بالمرتبة التعليمية بسبب ضعف فيه.

وقد تكون للتربية المدللة في صغره أثر في ذلك، فلم يتعود على أن يخالفه أحد أو يرفض له طلباً، أو حتى يذكر عيباً من عيوبه.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾[2].

أو قد يكون من مجتمع طبقي تربى فيه ضمن أعرافه وعاداته، فهو لا يطيق أن يتلقى الأمر ممن هو دونه في طبقته في عرف الناس. رغم أن هذا الأمر من أمر الجاهلية لأن العبرة بالتقوى.

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

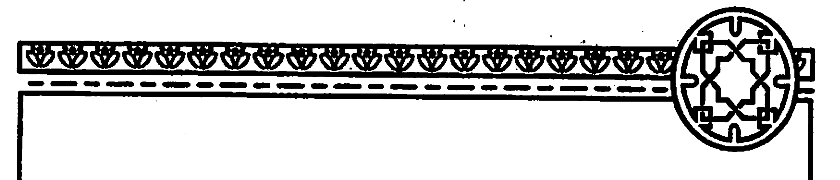
(٢) سورة الزخرف، الآية: ١٨.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾﴾[1].

ولكن ضغط المجتمع وخاصة في بداية طريق الدعوة يحتاج إلى مراعاة هذا الأمر حتى لا ينبذ بين قومه وعشيرته.

❀ ❀ ❀

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.



ظاهرة العصيان وعدم الانضباط

والعصيان ضد الطاعة: فهو التمرد وعدم الالتزام للأمر أو طاعة الآمر.

قال الجرجاني: العصيان هو: ترك الانقياد[1].

وقد يكون العصيان بسبب البطء في التنفيذ وهو تأخير التنفيذ للطلبات الصادرة للأفراد في المؤسسات التربوية تأخيراً يتجاوز الوقت المحدد للتنفيذ، أو يكون قريباً جداً منه، مما يفقد الأمر الإعداد الجيد المتكامل.

وظاهرة العصيان مظهر للتمرد وعدم التوافق مع نظام الحياة، لذا فإنها قضية تربوية تحتاج إلى بيان ومعالجة، وإعادة صياغة لشخصية ذلك المتمرد لما يوجه له من أمر.

وهي في نفس الوقت معاناة لا بد للمربي أن يعيشها ويبذل قصارى جهده في الوصول إلى حلها. وقد قيل كلفني أن أنقل لك جبلاً، ولا تكلفين أن أربي لك رجلاً.

وهناك أشكال رئيسة للعصيان[2].

---

(١) التعريفات. الجرجاني ١٣١ ط/ مصر الأولى ١٩٣٨.

(٢) مشكلات الأطفال والمراهقين وأساليب مساعدتهم /٤٠٥ ـ ٤٠٥ بتصرف.

أولاً ـ شكل المقاومة السلبية:

ومظاهره:

- التأخر في الامتثال والتسويف والبطء.
- ظهور علامات الحزن والتهجم والانسحاب على المنفذ.
- يكثر المنفذ من التذمر والشكوى ممن طلب طاعته.

وهذا الفتور والضعف قد يكون منشؤه ضعف استشعار الأجر العظيم بقيامه بأعمال التربية، ونسيان أن ما يقوم به عبادة تقربه إلى الله، بل إنها من أعظم العبادات، وقد يكون هذا الفتور عاماً في جميع عباداته، وتتحول هذه العبادات عنده مجرد عادات، وحركات روتينية يؤديها رفعاً للحرج.

ثانياً ـ التحدي الظاهر «لن أفعل»:

ومظاهره:

- تُصيبه ثورة غضب في الدفاع عن موقفه بعدم الطاعة.
- لديه الاستعداد لتوجيه الإساءة اللفظية للآمر.

ومن أمثلة هذه الإساءة في الرد، رد المشركين على النبي ﷺ:

١ ـ قصة أبي لهب مع النبي ﷺ عندما دعا قريشاً عند الصفا. قال له أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟.

٢ ـ ورد أن النبي ﷺ لما دعا قبيلة بني حنيفة عندما كان

يعرض نفسه على القبائل ليقبلوا دعوته ردوه وسبوه، وهم قوم مسيلمة الكذاب.

٣ ـ وما حدث له من الرد والأذى في رحلته إلى الطائف.

ثالثاً ـ نمط العصيان الحاقد:

ومظاهره:

- القيام بعكس ما يطلب منه.
- التشكيك بقدرات الآمر.

وقد يكون السبب: ضعف الطمأنينة والثقة أو انعدامها في الآمر عن العمل بسبب عدم التجانس النفسي، أو اكتشافه لبعض نقاط الضعف في الآمر أو لخلافه معه. فكلها أسباب تؤدي لبطء التنفيذ.

وإذا كان العصيان يقابل الطاعة، فإن ما يقابل الانضباط هو: (الفوضى).

وتظهر الفوضى على تصرفات الأفراد بـ:

ـ الإهمال في العمل المكلف به.

ـ المماطلة في التنفيذ وعدم الإنجاز السريع.

ـ تكوين جيوب الفتنة والشللية.

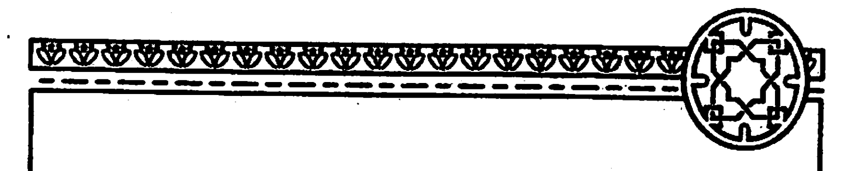
وتظهر الفوضى على تصرفات المسؤولين بـ:

- تعارض القرارات لعدم وجود المرجعية الواجدة للقرار.

- الازدواجية في توزيع المهام، وعدم وضوح الصلاحيات أو تجاوزها.

- سوء المعاملة بالقسوة في الرد أو الإساءة للمأمور أو المماطلة في الجواب أو القرار.





أسباب عدم الطاعة والانضباط

إن مرد تلك الأسباب يعود إلى النفس البشرية، فلو استقامت على الهدى والفطرة لانسجمت وأطاعت وانضبطت، ولما زادها تطبيق الإسلام إلا كمالاً وتماماً في هذا الأمر.

ولكن الخلل إذا أصاب الفطرة فإنه يعطب كل شيء فيها، فإذا بها متمردة غير طائعة، جامحة غير منظمة، لذا فإنها تحتاج إلى التذكير الدائم والتنبيه.

قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾[2].

وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾[3].

والحديث عن ذكر الأسباب ينصب في إطار ذلك التذكير الذي ينفع النفس البشرية فتؤب إلى أمر الله والالتزام بهديه.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٥.

(٢) سورة عبس، الآية: ٤.

(٣) سورة الأعلى، الآية: ٩.

وبقدر ما تتم التوعية والتبصير بفقه الانضباط والطاعة، وأن الطاعة والنظام من أساسيات الإسلام، وأن تحقق الطاعة والانضباط في حياة المجتمع لا يتم إلا من خلال تطبيقه الذي يجلب السعادة للإنسان نفسه، وأن الانضباط لم يكن يوماً من الأيام مصدراً للتعسف أو مقيداً للحريات السوية في التطبيق والممارسة.

إن الإنسان يحقق وجوده من خلال عبادته لله والتزامه بأمره وطاعته له، وبه يحصل التوافق الذي يتم بينه وبين الكون من حوله، فإذا بتناغم تام بين منظومة الخلق وبين الأمر المتوجه لها من الخالق الآمر سبحانه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[1].

ولم يكن هذا التوافق سبباً في ذلة الإنسان أو مسكنته وقهره، ولكن كان لرقيه وحريته وتكريمه الذي أراده الله له في هذه الحياة بتلك الطاعة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

مقوضات داخلية لعدم الانضباط والطاعة

وسأذكر بعض ما أرى أنه من المعوقات باختصار، ونسأل الله الثبات والإعانة والتوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أولاً - الاستجابة للوساوس والشبهات الشيطانية والظن:

«الاستجابة للوساوس والشبهات الشيطانية هي السبب في ضعف أو تلاشي الالتزام والانضباط والطاعة، ذلك أن الشيطان قاعد للإنسان لا سيما المسلم بالمرصاد. يوسوس بإلقاء الشبهات والأباطيل كي يصرفه عن طريق الله، أو على الأقل يجعل سيره في هذه الطريق محفوفاً بالتضييع والتفريط، وعدم السمع والطاعة لما يوجه له من الأمر. ولعل هذا هو السر في دوام تحذير الإسلام لنا من الشيطان»[1].

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾[2].

---

(١) آفات على الطريق ٢/١١٨ - بتصرف -.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾[2].

قال بعض السلف: «ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان: إما إلى تفريط، وإما إلى مجاوزة، وهي الإفراط، ولا يبالي بأيهما ظفر زيادة أو نقصاً».

قال ابن القيم رحمه الله: «وأول التعظيم: تعظيم الأمر والنهي، وهو أن لا يُعارضا بترخص جاف ولا يُعرضا لتشدد غالب.

فهاهنا أمران ينافيان تعظيم الأمر والنهي:

أحدهما: الترخص الذي يجفو بصاحبه عن كمال الامتثال.

الثاني: الغلو الذي يتجاوز بصاحبه حدود الأمر والنهي.

فالأول: تفريط. والثاني: إفراط.

وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان... وذكر القول الأول»[3].

ومن أهم وساوس الشيطان التحريش وتفكيك بنيان الأمة، وهو هدف أساسي للشيطان وأوليائه، حيث يؤدي إلى الضعف والذلة والهوان.

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٨.

(٢) سورة الناس.

(٣) تهذيب المدارج /٣٣٣ و ٤٩٥.

الشَّيطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»[1].

والأصل أن المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، فلا يكون سبباً في هدم بنيان الأمة.

عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً** - وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ -»[2].

ولا يحل للمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً، إِلاَّ رَجُلاً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا»**[3].

ويبتعد المؤمن عن الظن السيىء بإخوانه ليصفي قلبه، وتدوم محبته لهم، ويبعد الشيطان عن وسوسته له.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[4].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ولا تظنن بكلمة خرجت

---

(١) أخرجه مسلم ٤/٢١٦٦ (ح/٢٨١٢).

(٢) أخرجه البخاري ١/١٨٢ (ح/٤٦٧) ومسلم ٤/١٩٩٩ (ح/٢٥٨٥).

(٣) أخرجه مسلم ٤/١٩٨٧ (ح/٢٥٦٥).

(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

من أخيك المؤمن إلا خيراً وأنت تجد لها في الخير محملاً»[1].

وفي تمامه «ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلب»[2].

وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله لابنه: «يا بني إذا سمعت كلمة من امرىء مسلم فلا تحملها على شيء من الشر ما وجدت لها محملاً في الخير»[3].

وعبارات شاذة في التعامل مع الغير لا ينبغي تداولها.

- أظن أن فلاناً سيفعل كذا.
- أظن أنه يعني كذا.
- أظن أنه سيقول أو قال كذا.

والتثبت منهج إسلامي سام لا بد من التعامل به[4].

وإساءة جمع المعلومات ونقلها سبب من أسباب الظن السيىء والتعدي، فقد تجمع المعلومات بالظن، والظن لا يغني من الحق شيئاً، أو بالتجسس. والتجسس منهي عنه. وقد تنشر المعلومات بالغيبة والنميمة وهما خلقان متنافيان مع الإسلام والتربية.

ثانياً ـ الإطراء بالمدح والإعجاب بالنفس:

«والعجب هو: إحساس الفرد بتميز كلامه وفعله وصورته العامة عن الآخرين مما يجعله معجباً بنفسه»[5].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير ٢١٢/٤ ط/ الحلبي مصر.
(٢) تاريخ دمشق/ ابن عساكر ٣٥٩/٤٤.
(٣) سيرة عمر بن عبدالعزيز/ ابن الجوزي /٢٣٥٠.
(٤) انظر كتابي التثبت والتبيين في المنهج الإسلامي.
(٥) مشكلات وحلول ٦٩/١. عبدالحميد البلالي ط/ الكويت ١٩٩٥م.

ومن الناس من إذا أطري أو مُدح اعتراه أو ساوره لجهله بمكائد الشيطان خاطر أنه ما مدح إلا لأنه يملك من المواهب ما ليس لغيره، وما يزال هذا الخاطر يلاحقه، ويلح عليه حتى يصاب والعياذ بالله بالإعجاب بالنفس.

بل يقوم هو بتزكية نفسه، والثناء على أقواله وأفعاله. وذلك لما يراه من كثرة الثناء عليه من داخل المؤسسة ومن خارجها. كما أنه يرى تأثر الجماهير بكلامه «تداول أشرطته، طبع كتبه، وتداول آراؤه، وسماع الجماهير له والتفافهم حوله» بل إن النجاحات التي يحققها في المجتمع تنسيه ما كان عليه قبل البروز والشهرة، كما تنسيه فضل المؤسسة عليه في الإبراز بعد فضل الله تعالى[1].

قال تعالى: ﴿... فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[2].

ومظاهر ذلك تظهر في أمور:

(أ) التكبر والحسد:

وأول خطيئة ارتكبت هي التكبر والحسد - آدم وإبليس -.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾[3].

والوعيد في الدنيا للمتكبرين بصرفهم عن معرفة الحق والعمل به.

---

(١) مشكلات وحلول /٧٠.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾[1].

والوعيد في الآخرة بالعقاب الأليم.

عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»**.

قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَناً وَنَعْلُهُ حَسَنَةً قَالَ: **«إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»**[2].

والمتكبر لا يطيق تقبل الأمر أو القسوة في بعض الأحيان، لأنه يرى أنها نالت من مكانته ودرجته.

«أشد عيوبنا أنا إذا نُصحنا - يجوز فتح النون الأولى ورفعها - خدّرتنا الكبرياء».

(ب) الاستعصاء على النصيحة:

فلا يقبلها من ناصح، بل ينفر منها، بل يحاول فلسفتها وتحويرها وتحويلها إلى غيره لأنه قد بلغ الكمال، ونال الثناء من الناس، وما الناصح إلا حاسد أو جاهل لا يعرف الأمور، ولا يقدر الرجال!.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.

(٢) أخرجه مسلم ٩٣/١ (ح/٩١).

وقد تكون البيئة وتبدلها سبباً لذلك فإن تأثير الجو المنضبط ظاهر والعكس بالعكس، ومما لا شك فيه أن تبدل انضباط الفرد في البيئة الجديدة مؤشر إما على هشاشة انضباطه السابق أو على شحناء البيئة الجديدة.

وقد يكون التساهل والترخص سبباً آخر. والتساهل الأصغر يُغري بالتساهل الأكبر، وقد يمارس التساهل البسيط مع عزيمة وقوة يضمن بها عدم التجاوز إلى الأكبر، ثم يأتي الضعف أو الضيق أو... فيضعف أمام الأكبر.

عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ**»، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلاً كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلاَةٍ فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ حَتَّى جَمَعُوا سَوَاداً فَأَجَّجُوا نَاراً وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا(١).

(جـ) مخالفة الفعل للقول:

عدم الانضباط الظاهر: هو التمرد والعصيان على أوامر المؤسسة.

وعدم الانضباط الباطن هو: مخالفة الفعل للقول. ترى العامل يقول نعم وهو يفعل لا.

---

(١) أخرجه أحمد (ح/٣٦٢٧) وابن ماجه ١٤١٧/٢ (ح/٤٢٣٣) وقال في الزوائد: إسناده صحيح، ورجاله ثقات. انظره في صحيح ابن ماجه ٤١٦/٢ (ح/٣٤٢١).

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾[1].

قال ابن القيم رحمه الله: «إن الناس قد أحسنوا القول، فمن وافق قوله فعله، فذاك الذي أصاب حظه، ومن خالف قوله فعله، فذاك إنما يوبخ نفسه»[2].

وقال الشاطبي رحمة الله: «التأسي بالأفعال بالنسبة لمن يُعظم في الناس سرُ مبثوث في طباع البشر، لا يقدرون على الانفكاك عنه بوجه ولا بحال، ولا سيما عند الاعتياد والتكرار»[3].

(د) المجاهرة بعدم الانضباط والطاعة:

يُظهر عدم التزامه ولا يعلم أن عدم الطاعة والانضباط مرض يجب التداوي والعلاج منه، وأن المجاهرة به هو: تعمد العدوى للغير به، وهذه جريمة.

عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **«كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلاَّ الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلاً ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ يَا فُلاَنُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ»**[4].

---

(١) سورة الصف، الآيتان: ٢، ٣.

(٢) الفوائد /١٩٢.

(٣) الموافقات ٢٤٨/٤.

(٤) أخرجه البخاري ٢٢٥٤/٥ (ح/٥٧٢١).

والارتجال ينقض الانضباط، فلا بد من الأناة والتأني والانضباط.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأَشَجِّ عَبْدِالْقَيْسِ: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ**»[1].

«والحلم فضيلة خلقية نافعة، تقع في قمة عالية دونها منحدرات، فهو أناة حكيمة بين التسرع والإهمال أو التواني، وضبط للنفس بين الغضب وبلادة الطبع، ورزانة بين الطيش وجمود الإحساس.

أما الأناة فإنها تسمح للمربي أن يحكم أموره، ويضع الأشياء في مواضعها، بخلاف العجلة فإنها تعرضه للكثير من الأخطاء والإخفاق، وتعرضه للتعثر والارتباك، ثم تعرضه للتخلف من حيث يريد السبق، ومن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه»[2].

(هـ) الفرح بسماع عيوب الآخرين وخاصة أقرانه:

يقول الفضيل بن عياض رحمه الله: «إن من علامة المنافق، أن يفرح إذا سمع بعيب أحدٍ من أقرانه»[3].

ويحمله ذلك على استنقاص منجزات الغير، وتحقير جهود الآخرين، وإظهار السلبيات، وكتم الإيجابيات، وتحليل وقياس الأمور المختلف فيها من منطلق إحساسه بدوره الرائد، وتفوقه على غيره.

---

(١) أخرجه مسلم ٤٨/١ (ح/١٧).

(٢) الأخلاق الإسلامية ٣٢٥/٢ و٣٥٣.

(٣) آفات على الطريق ١٣٣/١.

ثالثاً ـ التنافس وعدم تحمل الرأي الآخر والفرقة:

«التنافس هو: أن يكون هناك تنافس بين أفراد المؤسسة التربوية الواحدة أو المؤسسات التربوية المختلفة لا على أساس القرب من الله، بل على أسس من حظوظ النفس، وإظهار العمل للبشر، والبروز في المجتمع أو النكاية بالمؤسسات الأخرى من منطلقات ضيقة بعيدة كل البعد عن التسابق في إرضاء الله تعالى. وهذا هو التنافس المذموم»[1].

ويؤدي بالناس إلى أمرين:

الأول: عدم تحمل الرأي الآخر[2]

فيظهر عدم الرضا بالرأي المخالف لرأيه، بل وعدم إعطاء فرصة لمن يخالفه بإبداء وجهة نظره، والغضب والضيق الشديد لسماع الرأي المخالف والإحساس الدائم بأن المنافس يريد سحب البساط منه شخصياً أو من مؤسسته، وقد يدفعه الاعتقاد الجازم بأن ما لديه هو الصواب اعتماداً على دراسات واقعية وإحصائيات، فيصاب بمرض حب الجدل. نسأل الله السلامة.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلاَّ أُوتُوا الْجَدَلَ**، ثُمَّ تَلاَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾»[3].

---

(١) مشكلات وحلول ١/٤٩، ٥٠.

(٢) مشكلات وحلول ١/٨١ ـ بتصرف ـ.

(٣) أخرجه الترمذي ٥/٣٧٨، ٣٧٩ (ح/٣٢٥٣) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ والآية من سورة الزخرف /٥٨.

لذا تجد أن التركيز على سلبيات الرأي المخالف دون النظر إلى إيجابياته، وعدم الاعتراف بالخطأ برأيه إن كان هناك خطأ هو الغالب عليه ومرد ذلك يعود ـ والله أعلم ـ إلى عدم صفاء النيات وابتغاء وجه الله تعالى.

والطبيعة اللاجماعية لها دور كبير في هذا، فبعض الناس ذو طبيعة لا جماعية لا يُطيق النظم والانضباط، بل يرفض الذوبان في البنية الجماعية، ويحاول التفلت منها بشتى الوسائل والمبررات، والبيئة الأسرية التي تربى فيها، وطريقة الأب الذي لا يقبل رأياً معارضاً له من الأسرة، ثبَّتت عنده هذا الخلق. وهو في ممارسته تلك واحد من ثلاثة إما متكبر، أو خواف، أو بخيل. وما مثل البخل صفة مانعة من الاندماج بالناس.

إن التركيز يجب أن يكون على الهدف من العمل وأنه ليس للأشخاص ولا للمؤسسات، إنما هو لإرضاء الله تعالى.

وأن التعاون والتنازل في الأمور الممكن التنازل فيها إذا كان ذلك يؤدي إلى صفاء القلوب، والارتقاء بالعمل، والانضباط والطاعة، هو الذي يجب على الجميع أن يمارسوه في التربية.

الثاني: الفرقة والخلاف

إذ أن سبب الفرقة والخلاف عدم السمع والطاعة والانضباط فينتهي الأمر إلى التمزق والتشتت، لذا يصير العمل الإسلامي لقمة سائغة لأعداء الله. «وينبغي التأكيد من خلال المناهج التربوية بأن ليس كل خلاف مذموم، فما قصد منه الارتقاء بالعمل التربوي فهو المحمود، وما قصد منه الانتقام الشخصي،

والخلاف من أجل الخلاف فهو المذموم»[1].

ألا ترى خلاف الصحابة رضوان الله عليهم في تنفيذ أمر النبي ﷺ أن صلاة العصر في بني قريظة فصلى بعضهم في الطريق قبل غياب الشمس، وأخَّر آخرون الصلاة حتى وصلوا وقد خرج وقتها، فأقر النبي ﷺ الفعلين.

والوصية التي ترد هنا «لا تكن سبباً في خلاف، ولا طرفاً فيه ما استطعت».

ومما يؤجج هذا الأمر: الحسد.

والحسد شيمة الجبناء الضعاف، إذ لو كانوا أقوياء لعملوا على تقوية أنفسهم حتى يكونوا مثل رؤسائهم وزملائهم المبرزين، ولعملوا على تقوية الصف بدل تمني زوال النعمة عن المحسودين.

عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«لاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَاناً، ولاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ»**[2].

وعن الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ رضي الله عنهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمُ الْحَسَدُ، وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ لاَ**

---

(١) مشكلات وحلول ٨٢/١.

(٢) أخرجه البخاري ٢٢٥٣/٥ (ح/٥٧١٨) ومسلم ١٣٨٣/٤ (ح/٢٥٥٩).
والحسد: هو تمني زوال النعمة عن الغير مطلقاً، أو زوالها إليه لتكون له.
والتدابر: المعاداة، وقيل المقاطعة لأن كل واحد يولي صاحبه دبره.

أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَاكُمْ لَكُمْ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ»[1].

رابعاً ـ حب الرياسة والرغبة في التحرر من سيطرة وسلطان الآخرين:

«بعض الناس ينشأ دون أن يذوق طعم الطاعة لأحد ولو مرة واحدة، ومثل هذا إذا وضع في محيط جماعي فإنه يعز عليه بل ويكبر في نفسه أن يكون فوقه أحد»[2].

والمقصود هنا هو: «طلب تولي المسؤولية والحرص عليها، أي طلب الفرد للرئاسة، ومحاولة بروزه أمام الناس دون أن يطلب ذلك منه»[3].

وقد ورد النهي عن هذا:

عَنْ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنُ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا عَبْدَالرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ لاَ تَسْأَلِ الإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُوتِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا»[4].

---

(١) أخرجه الترمذي ٦٦٤/٤ (ح/٢٥١٠) وهو صحيح، صحيح الجامع (ح/٣٠٣٨).

(٢) آفات على الطريق ٦١/٢.

(٣) مشكلات وحلول ١٤٣/١.

(٤) أخرجه البخاري ٢٤٤٣/٦ (ح/٦٢٤٨) ومسلم ١٢٧٣/٣، ١٢٧٤ (ح/١٦٥٢).

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ألا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ثُمَّ قَالَ: **«يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»**[1].

قال النووي رحمه الله تعليقاً على الحديثين[2]: «وفي هذا الحديث ـ الأول ـ فوائد منها:

ـ كراهية سؤال الولاية، سواء ولاية الإمارة والقضاء والحسبة وغيرها.

ـ بيان أن من سأل الولاية لا يكون معه إعانة من الله تعالى، ولا تكون فيه الكفاية لذلك العمل، فينبغي أن لا يولى. لما ورد:

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَا وَرَجُلاَنِ مِنْ قَوْمِي. فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ أَمِّرْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَقَالَ الآخَرُ مِثْلَهُ. فَقَالَ: **«إِنَّا لا نُوَلِّي هَذَا مَنْ سَأَلَهُ، وَلاَ مَنْ حَرَصَ عَلَيْهِ»**.

وقال النووي في الحديث الثاني[3]: «هذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات، لا سيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف تلك الولاية، وأما الخزي والندامة فهو في حق من

(١) أخرجه مسلم ١٤٥٧/٣ (ح/١٨٢٥).
(٢) شرح النووي على مسلم ١٣٠/٦ ط/ آل مكتوم.
(٣) أخرجه البخاري ٢٦١٤/٦ (ح/٦٧٣١) ومسلم ١٤٥٦/٣ (ح/١٧٣٣).

لم يكن أهلاً لها، أو كان أهلاً ولم يعدل فيها، فيخزيه الله تعالى يوم القيامة ويفضحه، ويندم على ما فرط، وأما من كان أهلاً للولاية وعدل فيها فله فضل عظيم. ومع هذا فلكثرة الخطر فيها حذره ﷺ منها، وكذا حذر العلماء منها، وامتنع منها خلائق من السلف وصبروا على الأذى حين امتنعوا»[1].

«وقد يدفعه إلى حب الرئاسة وجود ذكاء مفرط لم يجد استجابة فيكثر لديه النقد بسبب وبغير سبب. وإظهار ما لديه من علم دائماً. وعدم المشاركة بجدية عندما يكون مرؤوساً. وإفشال المبادرات التي لا تصدر من قبله»[2].

وتجده متطلعاً للمغانم، فهو منتظر للغنيمة ينضبط ويطيع حتى يحصل عليها، فإن فاتته أو حصل عليها فإن انضباطه يخف.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِنَّ نَاساً مِنَ الأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ. حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ: «**مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْراً وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»[3].

وهو متعالم متشبع بما لم يعط يحاول أن يتميز عن غيره، وأن يخدع الآخرين بأنه ذو علم وصفات تؤهله للقيادة والرئاسة

---

(١) شرح النووي على مسلم ٦/٤٥٠ ط/ آل مكتوم.
(٢) مشكلات وحلول ١/١٤٤.
(٣) أخرجه البخاري ٢/٥٣٤، ٥٣٥ (ح/١٤٠٠) ومسلم ٢/٧٢٩ (ح/١٠٥٣).

فهو مستغني عن علم كل عالم، متقمقماً في جهالاته، غير ناضر إلى وراءه وأمامه.

عَنْ أَسْمَاءَ رضي الله عنها عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي ضَرَّةً فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ إِنْ تَشَبَّعْتُ مِنْ زَوْجِي غَيْرَ الَّذِي يُعْطِينِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلاَبِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ»**[1].

وأبعد الناس عن النبي ﷺ يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون، وهم المتكبرون.

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقاً، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ»** قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: **«الْمُتَكَبِّرُونَ»**[2].

وهذا الصنف المذكور لا انضباط لهم لا في القول ولا في العمل ولا في الأحكام التي يصدرونها.

---

(١) أخرجه البخاري ٢٠٠١/٥ (ح/٤٩٢١) ومسلم ١٦٨١/٣ (ح/٢١٢٩).

(٢) أخرجه الترمذي ٣٧١/٤ (ح/٢٠١٨) وقَالَ وَفِي الْبَاب عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.
وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَرَوَى بَعْضُهُمْ هَذَا الْحَدِيثَ عَنِ الْمُبَارَكِ بْنِ فَضَالَةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ عَنْ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ عَنْ عَبْدِ رَبِّهِ بْنِ سَعِيدٍ وَهَذَا أَصَحُّ وَالثَّرْثَارُ هُوَ الْكَثِيرُ الْكَلاَمِ وَالْمُتَشَدِّقُ الَّذِي يَتَطَاوَلُ عَلَى النَّاسِ فِي الْكَلاَمِ وَيَبْذُو عَلَيْهِمْ.
وهو: صحيح، صحيح الترمذي ١٩٦/٢، ١٩٧ (ح/١٦٤٢).

. وهو مصاب بالمغالاة والتنطع، والمغالي يريد التميز فيكلف نفسه فوق طاقتها.

عَنْ عَبْدِاللَّهِ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»** قَالَهَا ثَلاَثاً[1].

وعن ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَدَاةَ الْعَقَبَةِ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ: **«هَاتِ الْقُطْ لِي»** فَلَقَطْتُ لَهُ حَصَيَاتٍ هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ فَلَمَّا وَضَعْتُهُنَّ فِي يَدِهِ قَالَ: **«بِأَمْثَالِ هَؤُلاَءِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّما أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ»**[2].

وقد يدفعه هذا الغلو إلى الشللية واتخاذ الجيوب «حيث تجتمع مجموعة من العناصر في المؤسسة لهم أفكار تعارض أفكار المؤسسة، ولهم اجتماعات وجلسات خارج إطار العمل الجماعي لتداول أفكارهم، ومحاولة إيجاد طرق لتطبيقها، أو إعاقة تطبيق قرارات المؤسسة التي ينتمون إليها مما لا يوافقهم»[3].

والموقف يقتضي:

غرس معاني التجرد لله عز وجل، والتذكير بأن الحياة لا تسوى أن يضيعها المؤمن في حظ نفسه، وطلب شهواته.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٠٥٥/٤ (ح/٢٦٧٠).

(٢) أخرجه النسائي ٢٦٨/٥ (ح/٣٠٥٧) وهو صحيح، صحيح النسائي ٣٥٦/٢.

(٣) مشكلات وحلول ١٨٩/١. بتصرف.

فعن سَهْلِ بنِ سَعْدٍ رضي الله عنه قالَ قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»**(1).

«وعدم التسرع باتخاذ أي إجراء حيث أنه لا يمكن تصنيف كل معارضة بأنها مظهر سلبي، إذ لا بد من دراسة نوع المعارضة.

والدعاء بالهداية والثبات، ويأتي الدعاء في مقدمة هذه الحلول حيث يستشعر أفراد المؤسسة بأهمية هذا الحل، ويقوم كل منهم بأداء واجبه من الدعاء.

وإيقاف أي غيبة. لأن انتشار الغيبة لمثل هؤلاء يشجع على تكوين جو من انعدام الثقة والتفكك في المؤسسة الواحدة، ويكون عاملاً في انتشار الخبر خارج المؤسسة لما له أكبر الأثر على أولئك النفر»(2).

وإذا لم تنفع معه الوسائل السابقة فلا بد من الإخراج من المؤسسة، لأن مثل هذا النوع لا يصلح للعمل المؤسسي، ويضره أكثر من أن ينفعه، حتى وإن كان يملك من العلم ما يملك، ذلك لأن عملنا التربوي الأصل فيه ابتغاء وجه الله تعالى.

خامساً ـ الاجتهاد المخالف:

«وهو: القيام بعمل من أعمال الدعوة دون استئذان من أحد. ويكون عادة مخالفاً لأوامر المؤسسة التي ينتمي إليها،

---

(1) أخرجه الترمذي ٥٦٠/٤ (ح/٢٣٢٠) وَقَالَ هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَهُو فِي صحيح الترمذي ٢٦٩/٢ (ح/١٨٨٩).

(2) مشكلات وحلول ١٩٠/١. بتصرف.

اعتقاداً من المجتهد أن رأيه أصوب من رأي المؤسسة، وقد يكون اجتهاده ذو نتائج إيجابية أو سلبية، وغالباً ما تكون النتائج سلبية»[1].

ويدفعه على هذا السلوك أمور منها:

● **استباق المسؤول:**

والأدب في هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾[2].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**أَمَا يَخْشَى أَحَدُكُمْ - أَوْ لاَ يَخْشَى أَحَدُكُمْ - إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ قَبْلَ الإِمَامِ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ، أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ صُورَتَهُ صُورَةَ حِمَارٍ**»[3].

ولا يتعارض هذا الأدب مع قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾[4].

فالمقصود بالآية استباق الفرد منفرداً إلى العمل الصالح،

---

(١) مشكلات وحلول ٢٠٧/١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٣.

(٣) أخرجه البخاري ٢٤٥/١ (ح/٦٥٩) ومسلم ٣٢٠/١ (ح/٤٢٧).

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.

وليس استباق قرارات المؤسسة، فإذا كان من سبقٍ فهو النصيحة للمؤسسة.

وكراهية المسؤول هي التي تدفع إلى استباقه، وهي لا تنبع دفعة واحدة وإنما تتجمع قطرة قطرة من ممارسات الرئيس حتى يصبح مكروهاً.

عَنْ عَوْف بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«خِيَارُ أَئِمَّتِكُم الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُم الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»** قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ فَقَالَ: **«لاَ، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلاَتِكُمْ شَيْئاً تَكْرَهُونَهُ فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ وَلا تَنْزِعُوا يَداً مِنْ طَاعَةٍ»**[1].

كما أن بخس التقدير وعدم إشعار العامل بأهمية الدور الذي يؤديه يصيبه بالإحباط في عدم جدوى عمله.

عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«أَعْطُوا الأَجِيرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ»**[2].

● الاستعجال والعجز عن تحمل المشاق ومتاعب الطريق:

«إن بعضاً من العاملين للإسلام يملك جرأة وشجاعة وحماساً لعمل وقتي، ولو أدّى به إلى الموت، ولكنه لا يملك القدرة على تحمل مشاق ومتاعب الطريق لزمن طويل.

---

(١) أخرجه مسلم ١٤٨١/٣ (ح/١٨٥٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه ٨١٧/٢ (ح/٢٤٤٣) وهو: صحيح انظر صحيح السنن ٥٩/٢.

مع أن الرجولة الحقة هي التي يكون معها صبر وجلد وتحمل ومثابرة وجد واجتهاد حتى تنتهي الحياة. لذلك تراه دائماً مستعجلاً ليجنب نفسه المشاق والمتاعب، وإن تذرع بغير ذلك»[1].

وقد يدفع إليه الجبن فهو يريد التخلص من المهمة الملقاة عليه.

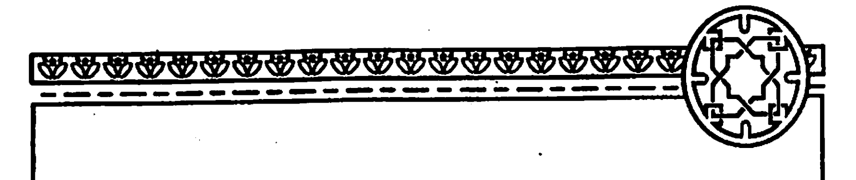
والجبن هو: خوف الإقدام والعواقب، وقد ينسف الانضباط من أساسه إذا نكص عن التنفيذ.

قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾[2].



(١) آفات على الطريق ١/٦٩، ٧٠.

(٢) سورة التوبة، الآيتان: ٥٦، ٥٧.



مقوضات خارجية لعدم الانضباط والطاعة

أولاً ـ المحن والابتلاء:

قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾[1].

«الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله، مغيب عن علم البشر. فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم. وهو فضل من الله من جانب، وعدل من جانب، وتربية للناس من جانب، فلا يأخذ أحداً إلا بما استعلن من أمره، وبما حققه فعله. فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه.

وما بالله ـ حاشا لله ـ أن يعذب المؤمنين بالابتلاء وأن يؤذيهم بالفتنة. ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة. فهي في

(١) سورة العنكبوت، الآيتان: ٢، ٣.

حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق، وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات، وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام، وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله أو في ثوابه، على الرغم من طول الفتنة وشدة البلاء.

والنفس تصهرها الشدائد فتنفي عنها الخبث، وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمع. وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويصلب ويصقل. وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات، فلا يبقى صامداً إلا أصلبها عوداً، وأقواها طبيعة، وأشدها اتصالاً بالله، وثقة فيما عنده من الحسنيين: النصر أو الأجر، وهؤلاء هم الذين يُسلِّمون الراية في النهاية، مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار»[1].

قال ابن القيم رحمه الله[2]: «محنة الدعاة سنة كونية قضاها الله.

وفي هذا الأمر عدة مشاهد:

* **مشهد القدر**: وأن ما جرى عليه بمشيئة الله وقضائه وقدره، فما شاء الله كان ووجب وجوده، وما لم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده.

وإذا شهد هذا استراح، وعلم أنه كائن لا محالة فما للجزع

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٧٢٠.

(٢) تهذيب مدارج السالكين /٤٢١ ـ ٤٢٣ ـ بتصرف ـ.

منه وجه، وهو كالجزع من الحر والبرد والمرض والموت.

* **مشهد الصبر**: فتشهد وجوبه، وحسن عاقبته، وجزاء أهله، فيتخلص من ندامة المقابلة والانتقام، فما انتقم أحد لنفسه قط إلا أعقبه ذلك ندامة.

* **مشهد العفو والصفح والحلم**: «ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً».

قال الشافعي رحمه الله:

لما عفوت ولم أحقد على أحد ... أرحت نفسي من هم العداوات
إني أحيي عدوي عند رؤيته ... لأدفع الشر عني بالتحيات
وأُظهر البِشر للإنسان أُبغضه ... كأنما قد حشا قلبي محبات
الناس داءٌ وداء الناس قربهمُ ... وفي اعتزالهمُ قطعُ المودات[1]

* **مشهد الرضا**: هذا المشهد للنفس المطمئنة سيما إذا كان ما أصيبت به سببه القيام لله. فإذا كان ما أصيب به في الله، في مرضاته ومحبته، رضيت بما نالها في الله، وهذا شأن كل محب صادق، يرضى بما يناله في رضا محبوبه من المكاره، ومتى تسخَّطَ به وتشكى منه، كان ذلك دليلاً على كذبه في محبته.

* **مشهد الإحسان**: وهو: أن يقابل إساءة المسيء إليه بالإحسان، ويهون عليه أنه قد أهدى المسيء حسناته له، ومحا سيئاته من صحيفته وأثبتها في صحيفة من أساء إليه.

---

(١) ديوان الشافعي /٢٨ ط/ لبنان الثالثة جمع وتحقيق محمد عفيف الزعبي.

والجزاء من جنس العمل، والله أكرم منك فلا يحاسبك على السيئة.

* **مشهد السلامة وبرد القلب وهو:** ألا يشتغل قلبه بما ناله من الأذى وطلب الوصول إلى الثأر، فإن القلب إذا اشتغل بشيء فاته ما هو أهم عنده وخير له منه.

* **مشهد الأمن:** فإذا ترك المقابلة والانتقام أمن ما هو شر من ذلك، وإذا انتقم واقعه الخوف ولا بد، والعاقل لا يأمن عدوه ولو كان حقيراً، فكم من حقير أردى عدوه الكبير.

* **مشهد الجهاد وهو:** أن يتولد أذى الناس من جهاده في سبيل الله وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وقد باع نفسه لله فلا حق له على من آذاه، ولا شيء له قبله، لأنَّ أجرَهُ قد وقع على الله.

ولهذا منع النبي ﷺ المهاجرين من سكنى مكة، ولم يردَّ على أحد داره ولا ماله الذي أخذه الكفار، ولم يضمنهم دية من قتلوه في سبيل الله.

وفي زمن الصدِّيق رضي الله عنه أراد أن يُضمِّنَ أهل الردة ما أتلفوه من نفوس المسلمين وأموالهم. فقال عمر رضي الله عنه بمشهد من الصحابة رضوان الله عليهم: «تلك دماء وأموال ذهبت في الله، وأجرها على الله، ولا دية للشهيد» ووافقه الصحابة والصديق رضوان الله عليهم.

* مشهد النعمة، وذلك من وجوه:

- مشهد نعمة الله أن جعله مظلوماً يترقب النصر، ولم يجعله ظالماً يترقب المقت.
- مشهد نعمة الله في التكفير من الخطايا، فما يصيب المؤمن يكفر الله به عن خطاياه.
- مشهد نعمة الله أن تلك البلية أهون من غيرها، فكل محنة فوقها أكبر منها، فإن لم يوجد أكبر فسلامة الدين أعظم، فكل مصيبة دون مصيبة الدين فهينة.

* **مشهد الأسوة**: العاقل يرضى أن يكون له أسوة رسل الله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

وأضع بين يديك بعض ما حدث للنبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم من ابتلاءٍ ومشقة، فهم الأسوة والقدوة.

* **إيذاء الرسول** ﷺ: ومن ذلك: إيذاؤه نفسياً وإيذاؤه جسدياً.

أما الإيذاء النفسي فإليك بعض نماذجه:

قال عمه أبو لهب بعد أن استمع لقول النبي ﷺ من على جبل الصفا، تباً لك أما جمعتنا إلا لهذا[١].

وظلم ذوي القربى أشدُّ غضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

وكان المشركون يسبون القرآن ومن أنزله إذا سمعوا

---

(١) أخرجه البخاري ١٩٠٢/٤ (ح/٤٦٨٨) ومسلم ١٩٤/١ (ح/٢٠٨).

النبي ﷺ يتلوه فأنزل الله قوله تعالى: ﴿... وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[1].

وقد اجتمعوا ليقولوا في النبي ﷺ قولاً واحداً.

قال ابن إسحاق: «إن الوليد بن المغيرة اجتمع هو ونفر من قريش ليجمعوا على رأي في النبي ﷺ ليواجهوا به أهل الموسم فقد قَرُبَ.

فقالوا: كاهن.

فقال لهم: ما هو بزمزمة الكهان.

فقالوا: نقول مجنون.

فقال: ما هو بمجنون، ولقد رأينا الجنون وعرفناه.

فقالوا: شاعر.

فقال: ما هو بشاعر.

فقالوا: ساحر.

فقال: ما هو بساحر.

قالوا: فما تقول فيه يا أبا عبد شمس.

فقال: «فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن. والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا. والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلى، وإنه ليحطم ما تحته».

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.

ثم غلبت عليه شقوته فقال: إن أقرب القول أن نقول إنه ساحر[1].

وكانوا يسمونه مذمماً بدل محمداً احتقاراً له.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«ألا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللَّهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ، يَشْتِمُونَ مُذَمَّماً وَيَلْعَنُونَ مُذَمَّماً وَأَنَا مُحَمَّدٌ»**[2].

وأما الإيذاء الجسدي:

فقد سأل عروة بن الزبير عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقال: أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ.

قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي مُعيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله ﷺ وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿... أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ...﴾ الآية[3].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ قائم يُصلي عند الكعبة وجمع من قريش في مجالسهم إذ قال قائل منهم. ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟

أيكم يقوم إلى جزور آل فلان فيعمد إلى فرثها ودمها

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٥٠٧/٢ وقال صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري ١٢٩٩/٣ (ح/٣٣٤٠).

(٣) سورة غافر، الآية: ٢٨. والقصة أخرجها البخاري ١٤٠٠/٣ (ح/٣٦٤٣).

وسلاها فيجيء به ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم، فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت النبي ﷺ ساجداً. فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك.

فانطلق منطلق إلى فاطمة رضي الله عنها - وهي جويرية - فأقبلت تسعى وثبت النبي ﷺ حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبهم.

فلما قضى رسول الله ﷺ، قال: «**اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش**»[1].

وقد حاولوا قتله وما قدروا.

قال أبو جهل مرة لقريش: هل يعفر[2] محمد وجهه بين أظهركم؟

فقيل: نعم.

فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته أو لأعفرن وجهه في التراب.

فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي زعم ليطأ على رقبته. قال فما فجئهم[3] منه إلا وهو ينكص[4] على عقبيه ويتقي بيديه.

---

(١) ورد عند البخاري ومسلم أنه (عقبة بن أبي معيط) انظر صحيح البخاري ٣/١٣٩٩ (ح/٣٦٤١) وأخرجه مسلم ٣/١٤١٨ (ح/١٧٩٤).

(٢) أي يسجد ويلصق وجهه بالعفر وهو التراب.

(٣) بغتهم.

(٤) أي رجع يمشي على ورائه.

قال فقيل له: مالك؟!

فقال لهم: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة.

فقال رسول الله ﷺ: «**لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً**»[١].

إيذاء أصحاب النبي ﷺ:

• الإيذاء الجسدي:

وكان من ذلك ما حدث لبلال رضي الله عنه. فعندما علم أمية بن خلف سيده ومالكه بإسلامه عذبه وأذاه. ولم يستسلم بلال رضي الله عنه وهانت عليه نفسه في الله، فكانوا يخرجونه ويطوفون به شعاب مكة على حر الصحراء ويضعون الصخر على صدره وهو يردد: أحد أحد[٢]. ثم اشتراه أبو بكر رضي الله عنه وأعتقه[٣].

وما حدث لزنيرة رضي الله عنها فقد ذهب بصرها وهي تأبى إلا الإسلام فقال المشركون: ما أصاب بصرها إلا اللات والعزى فقالت: كذا؟ والله ما هو كذلك. فرد الله عليها بصرها[٤].

• القتل والتصفية:

وهذه الأسرة الياسرية: عمار بن ياسر وأبوه ياسر وأمه سمية بنت خياط مولاة أبي حذيفة بن المغيرة، وكان ياسر حليفاً

---

(١) أخرجه مسلم ٤/٢٢١٥ (ح/٢٧٩٧).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/٤٠٤ ـ بإسناد حسن.

(٣) أخرجه البخاري ٣/١٣٧ (ح/٣٥٤٤).

(٤) السير والمغازي لابن إسحاق ١٩١ من مرسل عروة.

له فزوجه سمية فولدت له عماراً فأعتقه، وكان بنو مخزوم يخرجون بهم إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة، ويلبسونهم دروع الحديد المحماة بالنار. فما وهنوا ولا استكانوا، وكان يمر بهم رسول الله ﷺ وهم يعذبون فما يملك لهم إلا أن يحثهم على الثبات والصبر فيقول: **«صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»**(١).

ولما اشتكى له عمار قائلاً: يا رسول الله بلغ منا العذاب كل مبلغ. فقال له: **«اصبر أبا اليقظان، اللهم لا تعذب من آل ياسر أحداً بالنار»** ومر أبو جهل اللعين بسمية وهي تعذب في الله فطعنها بحربة في ملمس العفة منها فماتت، فكانت أول شهيدة في الإسلام(٢) ثم لم يلبث أبوه أن توفي تحت وطأة العذاب!!

ومن المعذبين في الله عامر بن فُهَيْرة(٣) أسلم قديماً وصحب النبي ﷺ والصديق في الهجرة يخدمهما، وشهد بدراً وأحداً وقتل يوم بئر معونة شهيداً.

● **أخذ المال ومصادرته:**

ولما أراد صهيب رضي الله عنه أن يهاجر قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً فكثر مالك، وبلغت الذي بلغت. ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٨٨/٣ وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤٠٤/١ من مرسل مجاهد وانظر الإصابة ٣٣٤/٤.

(٣) بضم الفاء وفتح الهاء وإسكان الياء وهي أمه. انظر الإصابة ٢٥٦/٢.

فقال لهم: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلُون سبيلي؟

قالوا: نعم.

قال: فإني جعلت لكم مالي. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**ربح صهيب، ربح صهيب**»[1].

وروى الإمام البيهقي بسنده قصة هجرة صهيب على نحو آخر قال: قال صهيب: خرج رسول الله ﷺ وخرج معه أبو بكر، وكنت قد هممت معه بالخروج فصدني فتيان من قريش فجعلت ليلتي تلك أقوم لا أقعد فقالوا: قد شغله الله عنكم ببطنه - ولم أكن شاكياً -[2] فناموا فخرجت منهم يعني متسللاً فلحقني أناس بعدما سرت يريدون ليردوني. فقلت لهم: إن أعطيتكم أواقي من ذهب تخلوا سبيلي وتوفون لي؟ ففعلوا فتبعتهم إلى مكة فقلت: احفروا تحت اسكفة[3] الباب فإن بها أواقي واذهبوا إلى فلانة فخذوا الحلتين.

وخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ بقباء قبل أن يتحول عنها فلما رآني قال: «**يا أبا يحيى: ربح البيع**» فقلت يا رسول الله ما سبقني إليك أحد وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام[4].

وما حدث لخباب رضي الله عنه فقد كان يعمل حداداً

---

(١) الإصابة ١٩٥/٢.

(٢) يعني أنه تعمد ذلك ولم يكن به مرض كي يفلت منهم.

(٣) عتبة الباب.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤٠٠/٣ وصححه وأقره الذهبي.

فعمل للعاص بن وائل سيفاً فاجتمع له عنده مال فذهب يتقاضاه.

فقال العاص: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد.

فرد عليه خباب: حتى تموت ثم تبعث.

فقال العاص ساخراً بأنه سيقضيه يوم القيامة من ماله[1].

فنزلت الآية ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾[2].

- **تفريق شمل الأسرة الواحدة:**

وكان ذلك ما حدث لآل أبي سلمة رضوان الله عليهم.

قالت أم سلمة رضي الله عنها «لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحلَ لي بعيره ثم حملني عليه وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري.

ثم خرج بي يقود بعيره فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد؟

قالت: فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه.

قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة قالوا: لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا.

قالت: فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده. وانطلق

---

(١) أخرجه البخاري ٧٩٥/٢ (ح/٢١٥٥) وأخرجه مسلم ٢١٥٣/٤ (ح/٢٧٩٥).
(٢) سورة مريم، الآية: ٧٧.

به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة.

قالت: ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني.

قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح. فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريباً منها، حتى مرَّ بي رجل من بني عمي - أحد بني المغيرة - فرأى ما بي فرحمني.

فقال لبني المغيرة ألا تخرجون هذه المسكينة فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها؟

قالت: ورد بنو عبد الأسد إلي عند ذلك ابني.

قالت: فارتحلت بعيري ثم أخذت ابني فوضعته في حجري ثم خرجت أريد المدينة.. القصة[١].

والأمثلة كثيرة أكثر من أن تُحصى والله المستعان.

ثانياً - الضغط العائلي:

هناك فتنة الأهل والأسرة والقبيلة والأحباء يهتفون بالداعية أن يسالم أو ليستسلم، وينادونه باسم الحب والقرابة والمصلحة والتروي والعقل، واتقاء الله في الرحم التي يعرضها للأذى أو الهلاك أن يترك طريقه.

وهو دور من أخطر الأدوار ضد الانضباط والطاعة لأنه مغلف بالعاطفة والخوف على المحبوبين.

---

(١) السيرة النبوية ابن هشام ٤٦٩/١، ٤٧٠ وسنده صحيح.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾[1].

ثالثاً ـ حركات الضرار:

بنى المنافقون في المدينة مسجداً ليجتمعوا فيه مكايدة للمسلمين ومضرة بهم، وزعموا أنهم بنوه توسعة على المسلمين، واستجابة لضعفائهم ومرضاهم، ولليلة الشاتية أو الممطرة.

ولكن حقيقة الأمر ما ذكره الله تعالى عن مقصدهم من ذلك البناء.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾[2].

وكانوا قد طلبوا من النبي ﷺ أن يأتي للصلاة فيه، فوعدهم عند رجوعه من تبوك، وفي طريق عودته نزلت الآيات، فأرسل النبي ﷺ من يحرقه ويزيله.

لذا فإن مسجد الضرار ليس طيناً وأعواد نخل بنيت في المدينة وتم هدمها وحرقها، ولكنه كل موقف أذى تجاه الإسلام في كل زمن وحين.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٧.

وحركات الضرار غير متوازنة وعدم التوازن في الاهتمام يمثل عدم انضباط في الفكر بينما الإسلام قائم على التوازن والشمول.

وقد تستجيب بعض التصورات القاصرة لمتطلبات ظروف طارئة فإذا انحسرت تلك الظروف انكشف العجز في الجوانب الأخرى.

ومما يؤسف له هذا العبث في الساحة الدعوية من تعدد متضاد في ميدان العمل والدعوة إلى الإسلام، وعدم التعاون والإخاء. قد نسي أغلبهم حق الله وهو الأخوة في الدين، فكثر السباب، وتتبع الأخطاء، والتضليل والتفسيق، والطعن بالجهل. في صورة منكرة يأباها العقل ويحرمها الشرع. ولا حول ولا قوة إلا بالله.»

حكم الاستقالة من العمل الإسلامي:

يقول الدكتور عبدالله الوشلي[١]:

إن الأمر الذي يطلب الإنسان منه الاستقالة واحد من ثلاثة:

١ ـ إما أن يكون حقاً محضاً واجباً لله سبحانه وتعالى.

٢ ـ وإما أن يكون حقاً واجباً مشتركاً بين الله وعبيده.

٣ ـ وإما أن يكون حقاً محضاً للإنسان.

فإن كان حقاً محضاً للإنسان:

فالأمر فيه بالخيار بين الجهتين المتعاقدتين والأفضل أن تُقبل فيه الاستقالة.

---

(١) البيعة أحكام ومضامين /١٧٠.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَقَالَ مُسْلِماً أَقَالَ اللَّهُ عَثْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(1).

أما في الحالتين الأولى والثانية:

- لا يجوز أن تُقبل الاستقالة من قبل العاقد، لأن فيه معصية.
- لا يجوز للطرف الثاني أن يطلبها، لأنه تهرب عن أداء حق من حقوق الله تعالى، واجب عليه القيام به في حدود الاستطاعة، وفي حق غيره الاستطاعة والمعروف.
- العمل للإسلام واجب، والجهاد في سبيل الله واجب، والعقد عليه يزيد وجوبه تأكيداً، ويحوله إلى واجب عيني.

والدليل على ذلك:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ رضي الله عنهما أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى الإِسْلاَمِ فَأَصَابَ الأَعْرَابِيَّ وَعْكٌ بِالْمَدِينَةِ. فَأَتَى الأَعْرَابِيُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقِلْنِي بَيْعَتِي فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ أَقِلْنِي بَيْعَتِي فَأَبَى ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ أَقِلْنِي بَيْعَتِي فَأَبَى فَخَرَجَ الأَعْرَابِيُّ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا الْمَدِينَةُ كَالْكِيرِ تَنْفِي خَبَثَهَا وَيَنْصَعُ طِيبُهَا»(2).

---

(1) أخرجه الحاكم ٢/٤٥ وصححه وأخرجه أبو داود ٣/٧٣٨ (ح/٣٤٦٠) وابن ماجه ٢/٧٤١ (ح/٢١٩٩) وهو صحيح، صحيح ابن ماجه ٢/١٤ (ح/١٧٨٦).

(2) أخرجه البخاري ٦/٢٦٣٦ (ح/٦٧٨٥) ومسلم ٢/١٠٠٦ (ح/٢٤٥٣).

قال النووي: «وإنما لم يقله النبي ﷺ لأنه لا يجوز لمن أسلم أن يترك الإسلام ولا لمن هاجر إلى النبي ﷺ للمقام عنده أن يترك الهجرة ويذهب إلى وطنه أو غيره»[1].

وقال ابن حجر نقلاً عن ابن كثير: «إنما امتنع من إقالته لأنه لا يعين على معصية»[2].

قال الأستاذ الراشد: «لا مانع من الإذن لمبايع أن ينقض بيعته بالتراضي، وأن يقال إذا أحب التفرد أو الانتماء للغير.

فإن قناعة المرء تتبدل وتتغير اجتهاداته، أو يختلف قلبه، أو يُلقي له الشيطان من الشبهات والظنون ما يحمله على اعتقاد ضرورة تملصه مما ألزم نفسه به.

فإذا ترفقنا معه وسهلنا له طريق التراجع، اعتبر ذلك فضلاً نتفضل به عليه، وعوناً له على إصابة مراده، فيتئد ويتأدب، ويحتفظ بالود، وربما عاد واعتذر إذا بلغت نزوته أبعد مداها، ورأى بعين الإنصاف فراغ دربه الجديد، وبعده عن السمت الأوسط.

ولكننا لو منعناه وحصرناه واتهمناه بفرار ونكوص، استولى عليه الاعتداد بالنفس، وحرص على تجاوز حصارنا له بافتنان يفلت فيه اللسان فينقطع عليه طريق الأوبة من بعد إذا أفاق، خجلاً مما كان منه من البهت»[3].

---

(١) شرح صحيح مسلم ٩٢/٦.

(٢) فتح الباري ١٧٣/١٣.

(٣) المسار /١٨٩.

وقد طلب مني الدكتور عبدالله الوشلي في ملاحظاته على الكتاب أن أجمع بين الرأيين وأبين رأيي فيهما.

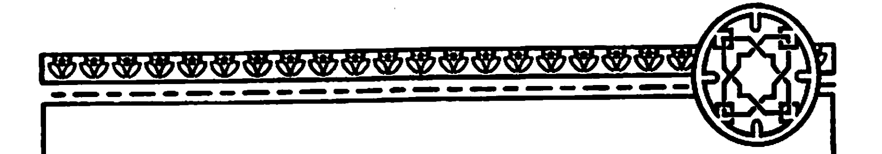
فأستعين بالله تعالى على ذلك بالقول التالي: الوفاء صفة المؤمنين، والغدر صفة غيرهم، ولا ينبغي أن يُعطي المؤمن عهداً ولا وعداً ولا عقداً ثم يخلفه. لأنه مبني على القناعة والعلم بمقتضاه من الأساس.

والعهد مطلوب الوفاء به وتذكره بحيث يبقى حاضراً في الذهن غير بعيد. قال تعالى: ﴿...وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

وأما ما ذُكر عن الراشد فهو كما قيل «آخر الدواء الكي» فليكن الكي وأنت مبتسم.



(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢.



الخاتمة

إن واقعنا اليوم لا يمكن أن تسير فيه الدعوة والتربية إلا بالطاعة والتوافق التام في تحديد الأهداف وإن تعددت الوسائل.

وما دام العاملون للإسلام من الدعاة إلى الله تتقاذفهم اجتهادات لا توحد صفهم، ولا تجمع كلمتهم، ولا تُعطي للطاعة لبعضهم على بعض أيَّ معنى، فإن عراقيل الطريق ستعوق مسيرتهم، وعقبات المشكلات ستستنزف طاقتهم، وسيجد الأعداء منفذاً لاختراقهم.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾[1].

فلا بد من طاعة مبصرة مدركة أن الهدف الأسمى لا بد له من تخلص من أخلاق سوء مدمرة، ومن حظوظ نفس متطلعة إلى قيادة وإمرة لا يرضى أصحابها بأن يُقادوا، بل أن يُنصحوا بما يفيد مسيرة الطاعة في الإسلام ودعوته عند كثير منهم. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

لقد كان هذا البحث إشارات وإيماءات في توضيح هذا المفهوم وبيان أساليب تحققه، فوائده وثمراته، عوائقه ومدمراته، رجوت به فهماً مدركاً، وتطبيقاً واقعياً، وعودة وأوبة مرتجاة لمن شذَّ أو تجاوز أو انكفأ على ذاته ونفسه.

إنه لا بد من السمع والطاعة فهي المدخل المتواضع لجمع كلمة المسلمين، وإزالة الفرقة والخلاف بينهم، وإذا كان شعار تعالوا نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه، لم يرق للبعض. ألا نستبدله بشعار: تعالوا نتعاون فيما اتفقنا عليه، وينصح بعضنا بعضاً بآداب النصيحة في الإسلام فيما اختلفنا فيه، فتجتمع الكلمة، وتتحدد الأولويات، أظن ذلك ممكناً لو صدقت النيات، وصفت القلوب من الغوائل، وسلم الناس من اختراق العدو.

أسأل الله العلي العظيم أن يهدي قلوبنا لطاعته، ونعوذ بالله من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، تولنا يا مولانا إنك على كل شيء قدير، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، يا الله. والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله وهو حسبنا ونعم الوكيل. والحمد لله رب العالمين.

المؤلف

٢٠٠٢/٥/١٩م

رأس الخيمة

رسالة الأستاذ الدكتور عبدالله قاسم الوشلي حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

أستاذي الدكتور أحمد العليمي حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد:

جزاكم الله خيراً وأثابكم على هذا الجهد الطيب والاختيار لموضوع البحث، حيث تناول موضوعاً الاحتياج إليه قائم، والضرورة إليه داعية، وقد وفقتم كثيراً في مفردات البحث.

وقد اطلعت عليه كاملاً، وكانت لي بعض الملاحظات لعلَّها تُسهم في إثراء البحث وإن كانت طفيفة، وهي أيضاً متروكة لكم فقد ترون ما هو أفضل وأحسن. وجزاكم الله خيراً.

تلميذكم[1]
د .عبدالله الوشلي
الأستاذ بجامعة صنعاء

---

(١) قلت: هذا من تواضع العلماء والأخ الزميل الحبيب الدكتور عبد الله منهم، وليس غريباً عليه مثل هذا الخلق الرفيع، والوفاء الكبير. فهو زميل الدراسة في كلية الشريعة في المدينة المنورة. ومكانته في العلم والفضل والدعوة كبيرة، وجهده الإبداعي في الفكر والثقافة تشهد به=

. . . .

= مجموعة كتبه وإنتاجه العلمي، ويبرزه دوره البارز الأكاديمي وفي الميدان الدعوي.

وملاحظاته كلها قد أخذت بها لأنها من خبير بالميدان والممارسة.

فجزاه الله خيراً، وبارك فيه.

المؤلف

المراجع والمصادر

١ - **القرآن العظيم**.

٢ - **أبجديات التصور الإسلامي/** فتحي يكن. ط/ لبنان.

٣ - **أحكام القرآن/** أبو بكر بن العربي المالكي الناشر دار المعرفة/ لبنان.

٤ - **أحكام القرآن/** أحمد بن علي الرازي الجصاص نشر/ لبنان.

٥ - **الأخلاق الإسلامية/** د .حسن حبنكة. ط/ لبنان.

٦ - **الآداب الشرعية/** ابن مفلح. ط/ لبنان.

٧ - **الاستقامة/** ابن تيمية، بتحقيق محمد رشاد سالم. ط/ مكتبة ابن تيمية، مصر.

٨ - **الإصابة في تمييز الصحابة/** ابن حجر. ط/ لبنان.

٩ - **أصول الدعوة/** د .عبدالكريم زيدان. ط/ لبنان.

١٠ - **أعلام الموقعين عن رب العالمين/** شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن القيم/ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد. ط/ مصر.

١١ - **آفات على الطريق/** د .سيد نوح. ط/ دار الوفاء/ مصر.

١٢ - **الاستقامة/** ابن تيمية بتحقيق د. محمد رشاد سالم. ط/ مصر.

١٣ - **بصائر ذوي التمييز/** مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، نشر لبنان.

١٤ - **البيعة أحكام ومضامين/** د.عبدالله الوشلي الناشر، مكتبة الإرشاد اليمن.

١٥ ـ **تاج العروس**/ محب الدين السيد مرتضى. ط/ مصر.
١٦ ـ **تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي**/ المباركفوري. ط/ مصر.
١٧ ـ **تذكر دعاة الإسلام**/ أبو الأعلى المودودي. ط/ المنظمات = الإسلامية الطلابية.
١٨ ـ **التعريفات**/ علي بن محمد الجرجاني. ط/ الأولى - مصر -.
١٩ ـ **تفسير الخازن**/ علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم الغدادي. نشر دار المعرفة، لبنان.
٢٠ ـ **تفسير القرآن العظيم**/ للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي. ط/ مصر.
٢١ ـ **التفسير الكبير**/ فخر الدين الرازي نشر لبنان دار الكتب العلمية.
٢٢ ـ **تفسير المنار**/ محمد رشيد رضا. ط/ مصر.
٢٣ ـ **التفسير المنير**/ الدكتور: وهبة الزحيلي. ط/ لبنان، الأولى.
٢٤ ـ **تهذيب مدارج السالكين**/ ابن القيم - تلخيص عبدالمنعم العلي - ط/ وزارة الأوقاف دولة الإمارات العربية المتحدة.
٢٥ ـ **جامع البيان**/ المعروف بتفسير الطبري محمد بن جرير. ط/ مصر.
٢٦ ـ **جامع الترمذي**/ محمد بن عيسى بن سورة، تحقيق أحمد شاكر. ط/ دار إحياء الكتاب العربي.
٢٧ ـ **الجامع لأحكام القرآن**/ المعروف بتفسير القرطبي محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. ط/ دار الكتب العربية، لبنان.
٢٨ ـ **الحسبة**/ أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية. ط/ الرياض.
٢٩ ـ **دروس في السيرة النبوية وعبرها**/ د .أحمد العليمي. ط/ جامعة الإمارات.
٣٠ ـ **دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين**/ محمد بن علان الصديقي. نشر لبنان، دار الكتاب العربي.
٣١ ـ **ديوان الشافعي**/ جمع محمد عفيف الزعبي. ط/ لبنان.

٣٢ ـ **ذكريات لا مذكرات**/ عمر التلمساني. ط/ مصر.

٣٣ ـ **روح المعاني**/ الألوسي.

٣٤ ـ **زاد المعاد**/ ابن القيم. ط/ بتحقيق الشيخ شعيب الأرناؤط.

٣٥ ـ **سبل السلام شرح بلوغ المرام**/ محمد بن إسماعيل الصنعاني. ط/ مصر.

٣٦ ـ **السلسلة الصحيحة**/ محمد بن ناصر الدين الألباني. ط/ المكتب الإسلامي.

٣٧ ـ **سنن ابن ماجه**/ محمد بن يزيد القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي. ط/ مصر.

٣٨ ـ **سنن الدارمي**/ عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي. ط/ مصر.

٣٩ ـ **السنن الكبرى**/ البيهقي.

٤٠ ـ **سنن النسائي**/ أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق الشيخ عبدالفتاح أبو غدة. ط/ حلب.

٤١ ـ **السيرة النبوية**/ ابن كثير. ط/ مصر.

٤٢ ـ **السيرة النبوية**/ ابن هشام، تحقيق البغاء وزملاؤه. ط/ الحلبي مصر.

٤٣ ـ **السيرة النبوية من مصادرها الأصلية**/ مهدي رزق. ط/ مركز الملك فيصل، الرياض.

٤٤ ـ **السير والمغازي**/ محمد بن إسحاق.

٤٥ ـ **شرح العقيدة الطحاوية**/ علي بن أبي العز الحنفي، بتحقيق الألباني. ط/ المكتب الإسلامي.

٤٦ ـ **شرح النووي على مسلم**/ محي الدين الندوي. ط/ آل مكتوم، دبي.

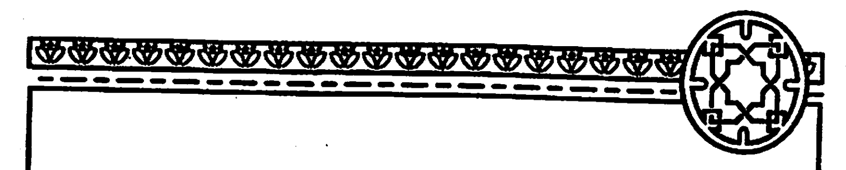
٤٧ ـ **شرح سنن أبي داود**/ ابن القيم. مطبوع بحاشية عون المعبود. ط/ مصر.

٤٨ ـ **صحيح البخاري**/ محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق د .البغاء. ط/ مكتبة علوم القرآن عجمان.

٤٩ ـ **صحيح جامع الترمذي**/ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني. ط/ المكتب الإسلامي.
٥٠ ـ **صحيح سنن ابن ماجه**/ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني. ط/ المكتب الإسلامي.
٥١ ـ **صحيح سنن النسائي**/ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني. ط/ المكتب الإسلامي.
٥٢ ـ **صحيح مسلم**/ مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. بتحقيق محمد فؤاد. ط/ مصر.
٥٣ ـ **طاعة أولي الأمر**/ عبدالله الطريقي.
٥٤ ـ **الطبقات الكبرى**/ ابن سعد. نشر لبنان.
٥٥ ـ **فتح الباري**/ أحمد بن حجر العسقلاني. ط/ آل مكتوم.
٥٦ ـ **فتح المنان شرح سنن الدارمي**/ نبيل بن هاشم الغمري. ط/ لبنان، الأولى عام ١٩٩٩م.
٥٧ ـ **الفروق**/ القرافي.
٥٨ ـ **الفوائد**/ ابن القيم.
٥٩ ـ **في ظلال القرآن**/ سيد قطب. ط/ دار الشروق.
٦٠ ـ **القاموس المحيط**/ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي. ط/ مؤسسة الرسالة، لبنان، الأولى.
٦١ ـ **القيادة والجندية في الإسلام**/ د. محمد الوكيل. ط/ مصر.
٦٢ ـ **كشف الأستار**/ ابن حجر.
٦٣ ـ **كنز العمال**/ علي المنتقى الهندب. ط/ حلب ـ سوريا ١٩٧٤م.
٦٤ ـ **لسان العرب**/ لأبي الفضل محمد بن مكرم بن منظور. ط/ دار صادر، لبنان.
٦٥ ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**/ علي بن أبي بكر الهيثمي، دار إحياء التراث، لبنان.
٦٦ ـ **المسار**/ محمد الراشد. ط/دار المنطلق. دبي.

٦٧ - **المستدرك على الصحيحين**/ أبو عبدالله الحاكم النيسابوري. ط/ الهند.
٦٨ - **مسند الإمام أحمد بن حنبل**. ط/ لبنان.
٦٩ - **مشكلات الأطفال والمراهقين وأساليب مساعدتهم**/ شارلز شيفر وهور مليمان، ترجمة نزيه حمدي ونسيمة داود، منشورات الجامعة الأردنية، عمان عام ١٩٨٩م.
٧٠ - **مشكلات وحلول**/ عبدالحميد البلالي. ط/ الكويت.
٧١ - **المصباح المنير**/ أحمد بن محمد الفيومي. ط/ مكتبة لبنان.
٧٢ - **المصنف**/ عبدالرزاق بن همام الصنعاني، بتحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي.
٧٣ - **معالم السنن**/ الخطابي.
٧٤ - **المعلوم من واجب العلاقة بين الحاكم والمحكوم**/ الشيخ عبدالعزيز بن ابن باز. ط/ دبي.
٧٥ - **المغني**/ ابن قدامة. ط/ الرياض.
٧٦ - **المفردات في غريب القرآن**/ الأصبهاني.
٧٧ - **ممرات الحق**/ د .رائد عبدالهادي. ط/ الأولى، الكويت.
٧٨ - **منهاج السنة**/ أحمد بن عبدالحليم بن تيمية. ط/ مصر.
٧٩ - **الموافقات**/ إبراهيم اللخمي الشاطبي. ط/ لبنان.
٨٠ - **الموسوعة الفقهية الكويتية**/ وزارة الأوقاف الكويتية.
٨١ - **نظرات في رسالة التعاليم**/ محمد الخطيب. ط/ مصر.
٨٢ - **نظرات في واقع الدعوة والدعاة**/ مصطفى الطحان. ط/ الكويت.
٨٣ - **نظرة النعيم**/ مجموعة من المؤلفين بإشراف الدكتور صالح بن حميد إمام الحرم المكي.
٨٤ - **نيل الأوطار**/ محمد بن علي الشوكاني. ط/ مصر.





الفهارس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

دروس في الكتمان

من الرسول القائد

تأليف

اللواء الركن

محمود شيت خطاب

بسم الله الرحمن الرحيم

(لقد كان لكم في رسول الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لمن كان يرجو الله واليومَ الآخرَ وذكر الله كثيرا)

(القرآن الكريم)

الإهداء

الى الفدائيين الفلسطينيين الذين يتكلمون بالدم

محمود شيت خطاب

المقدمة

في حياة النبي صلّى الله عليه وسلّم العسكرية ، أمثلة رائعة في (الكتمان) ما أحرانا أن نذكرها ونتذكرها في هذه الظروف العصيبة التي تجتازها الأمة العربية بعد حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ .

وليس سراً ، أن إسرائيل بذلت جهوداً جبّارة من أجل الحصول على أدق التفاصيل العسكرية عن العرب ، فقاتلت في تلك الحرب مفتوحة العينين : تعرف كلّ شيء عن العرب ، ولا يعرف العرب عنها شيئاً !

ورب كلمة يقولها عابر سبيل في سيارة أو مقهى أو ندى . يتلقفها جاسوس أو عميل ، تؤدي إلى نكبة قاصمة للظهر وإلى خسائر فادحة في الأرواح والأموال .

والنبي صلّى الله عليه وسلم يقول : « المسلم مَنْ

سلم المسلمون من يده ولسانه » .

ولعلّ تفسير هذا الحديث النبوي الشريف واضح ، ولكنني أجد فيه اليوم معاني أعمق مما يخيل للكثيرين من المفسرين .

فالمسلم الذي يشتّم أخاه المسلم، قد يلحق به ضرراً شخصياً ضمن نطاق محدود .

ولكنّ المسلم الذي يذيع أسرار إخوانه المسلمين قد يلحق بهم ضرراً مصيرياً يودي بهم إلى الدرك الأسفل استعباداً وذلاّ وخسائر بغير حدود .

وحين اقترح عليّ المذياع المصوّر[1] معالجة الجانب العسكري من حياة الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسّلام ، قرّرت أن أتكلم عن (الكتمان) شعوراً مني بأنه موضوع السّاعة .

ذلك لأنني لمست بأنّ الكثيرين يثرثرون بالأسرار العسكرية بشكل يقطّع نياط القلب ، ويفيد إسرائيل ويضر العرب دون مبرر .

ونشر هذا البحث قد يفيد في هذه الظروف ضمن أوسع نطاق .

والله أسأل أن يفيد به ويجعله خالصاً لوجهه الكريم .

---

(١) التلفزيون .

معنى الكتمان

- ١ -

في اللّغة : كَتَم الشيء كَتْماً وكِتْماناً : ستره وأخفاه ، ومنه : الكُتَمَة : الذي يَكْتُم سِرَّه ، والكَتُوم الذي يَكْتُمُ سِرَّه .

ولكنّ (الكِتْمان) - في المصطلحات العسكرية الحديثة ، معناه : إخفاء المعلومات العسكريّة الخاصّة بقواتنا وأسلحتها وتنظيمها وتجهيزها وقيادتها وحركاتها ، والخاصة بطبيعة الأرض في بلادنا أيضاً ، عن العدو والصديق ، وعدم إفشاء الأسرار العسكرية مهمّة كانت أم غير مهمّة ، وصغيرة كانت أم كبيرة ، وتافهة كانت أم خطيرة ، لكل إنسان سواء كان عدواً أم صديقاً .

وكتمان المعلومات العسكرية عن العدو لا يحتاج إلى بيان ، فمحاذيره معروفة ، ونتائجه معروفة أيضاً .

ولكنّ كتمان المعلومات العسكرية عن (الصّديق)، يحتاج إلى شيء من البيان.

الصديق نوعان: نوع له علاقة بالقضايا العسكرية، فاذا كان هذا الصديق فوق الشبهات، فلا بأس من اطلاعه على المعلومات العسكرية التي لها صلة مباشرة بعمله وواجبه العسكري دون زيادة أو نقصان.

ونوع لا علاقة له بالقضايا العسكرية، فيجب ألاّ تفشى له المعلومات العسكرية في أية حال من الأحوال.

فقد يكون هذا (الصّديق) يحبّ التظاهر والتّباهي، فيذيع ما اطّلع عليه من الأسرار العسكرية.

وقد يكون غير مقدّر لأهميّة (الكتمان)، وقد يكون غير مقدّر لأهمية ما اطّلع عليه من أسرار عسكرية، فيذيع ما يعرفه عنها لكل مَنْ هبّ ودبّ.

ومن المحرّم على العسكري الحق، أن يبوح بأسراره حتى لوالديه وذوي قرباه، وفي التاريخ العسكري أمثلة كثيرة، نذكر كيف استطاع العدو أن يطّلع على الأسرار العسكرية من عوائل العسكريين — خاصة النساء منهم —، فضيّعت تلك الأسرار كثيراً من المعارك والحروب.

إنّ الأسرار العسكريـــة، يجب أن تبقى في طيّ الكتمان) الشديد، ولا عذر لمن يذيعها بحجة أو بأخرى

للعدو أو الصديق على حدّ سواء .

والذي يطّلع على الأسرار العسكرية ، يجب أن يصونها بالكتمان ، لا فرق في ذلك بين العسكريين والمدنيين

أهميـــة الكتمان

- ٢ -

لقد كان من جملة أسباب انتصار إسرائيل عـــلى العرب في حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، هو أن إسرائيل استطاعت إقتناص الأسرار العسكرية العربية ، فحاربت العرب على هدى وبصيرة .

وقد صرّح المسؤولون العسكريون في إسرائيل ، بأنّ من أهم أسباب انتصارهم على العرب ، أنّ مخابراتهم استطاعت بوسائلها الحصول على أدق المعلومات العسكرية عن العرب .

والدرس الكبير الذي يجب أن يتعلّمه العرب من تلك الحرب ، هو أن يصونوا معلوماتهم عن أسرارهم العسكرية ، وأن يتحلّوا بأعلى درجات (الكتمان) .

ولو كان العرب شعوبـــاً وحكومات ، وأفراداً وجماعات ، عند مسؤولياتهم التاريخية في (الكتمان) ،

« ٢ »

وهم في حرب حياة أو موت ، ضدّ إسرائيل المعتدية المغتصبة ، لما استطاعت إسرائيل ومَنْ وراء إسرائيل ، أن يجمعوا المعلومات المفصّلة الدقيقة ، عن الجيوش العربية ، وعن أسرارها العسكرية الحيوية .

ولكنّ العرب ، مع الأسف الشديد ، استهانوا بعدوّهم ، وتهاونوا في (كتمان) أسرارهم العسكرية ، فحلّت بهم النكبة ، وضيّعوا القدس الشريف وأجزاء واسعة من أرضهم .

لقد كنت في سيارة تنهب الأرض نهباً في أحد البلاد العربية ، فسمعت سائقها يتبجّح بعرض معلوماته عن المطارات العسكرية وعن أوكار الطائرات الجاثمة فيها !!

وكان في السيارة عدد من الركّاب لا أعرفهم ، فما سمعت أحداً منهم استنكر أقوال السّائق وأمره بالسّكوت .

وحين تمادى السّائق في غيّه ، حاولت أن أضع حدّاً لحديثه ، ولكنه زعم أن المعلومات التي ذكرها يعرفها كلّ إنسان !!!

ومن المذهل حقّاً ، أن الرُّكّاب الآخرين أيّدو في ادعائه !!.

هل يعرف كل إنسان كلّ المعلومات الخطيرة عن الأسرار العسكرية العربية

إذا كان الأمر كذلك ، فانّه سيؤدي إلى كوارث لا يعلم إلاّ الله مداها وتأثيرها ، ولا بدّ لكل حريص على شرف أُمّته من أن يتعلّم (الكتمان) ويعلّم (الكتمان) غيره من النّاس

يجب أن تلقى المحاضرات عن (الكتمان) في المدارس والمعاهد والجامعات

ويجب أن يُركّز خطباء الجوامع والكنائس على أهمية التحلي بمزية (الكتمان) .

ويجب أن نرسل البعوث إلى المدن والقرى والأرياف لتعليم السُكّان أهمّيّة (الكتمان) .

يجب أن يعرف الشعب كلّه بكل مكان ، أهميّة الحرص الشّديد على المعلومات العسكرية خاصة والمعلومات الأخرى التي لها طابع سري .

يجب أن نحذّر الناس من مغبّة (الثرثرة) التي لا طائل من ورائها ولا جدوى ولا فائدة .

إن قضايا (الكتمان) لها نتائج حاسمة على النصر والاندحار ، والأمة التي لا تتحلى بالكتمان الشديد ، لا تنتصر أبداً .

تراث الكتمان العربي الإسلامي

- ٣ -

من المعلوم أن (المباغتة)[1] مبدأ من أهم مبادىء الحرب ، و (الكتمان) وسيلة من وسائل تطبيق هذا المبدأ ، لأن العدو الذي يكشف نيات مَن يحاربه قبل وقت مبكّر ؛ لا بدّ من أن يعمل بكل طاقاته على إحباط تلك النيات .

وقد كان (الكتمان) ولا يزال وسيبقى من سجايا العربي الأصيل ، وفوق ذلك فهو عند المسلم الحق (دِينٌ) واجب التمسّك به في السلم والحرب .

ولو أردنا أن نستقصي ما ورد في الأدب العربي شعراً

---

(١) المباغتة : أقوى العوامل وأبعدها أثراً في الحرب ، وتأثيرها المعنوي عظيم جداً ، وتأثيرها من الناحية النفسية يكمن فيما تحدثه من شلل متوقع في تفكير القائد الخصم . ومن أهم وسائل المباغتة : الكتمان .

ونثراً عن الكتمان ، لطال بنا المقال وبَعُد الشَّوط ، وسأقتصر على بعض الأمثال العربية الشائعة .

من تلك الأمثال : « إيَّاك وأن يَضْرِب . لسانُك عنقك »[1] و « إنّ للحيطان آذاناً »[2] و « صدرك أوسع لسِرِّك »[3] و « الحذر أشدّ من الوقيعة »[4] .

وقال تعالى في كتابه العزيز : (وإذا جاءهم أمْرٌ من الأمْن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتّبعتمُ الشيطانَ إلاّ قليلا)[5] .

هذا الأمر الالهي يرشد المسلمين ليس إلى أهمية (الكتمان) فحسب ، بل إلى وجوب إخبار المسؤولين عن كل أمرٍ يؤثّر في المعنويات تأثيراً سيئاً ، ليروا فيه رأيهم ، ويضعوا حدّاً لانتشاره وإشاعته ، حتّى لا يتفاقم ضرره ، ويتوصّل الذين أذاعوه إلى أهدافهم من إذاعته بسهولة ويُسْر .

وهذا بالطبع يشمل القضايا المصيرية ، أما الأخبار

---

(١) مجمع الأمثال (١/٧٥) – بيروت – ١٩٦٢ .
(٢) مجمع الأمثال (١/١١٩) .
(٣) مجمع الأمثال (١/٥٥٠) .
(٤) مجمع الأمثال (١/٢٩٣) .
(٥) الآية الكريمة من سورة النساء (٤ : ٨٣) .

عن القضايا الشخصية التافهة فهذا تجسس لا يقره الإسلام .

وقد حذّر الاسلام من إذاعة الأسرار العسكرية ، وجعل إذاعتها من شأن (المنافقين) ، وطلب الرّجوع بها إلى القيادة العامة ، كما طلب من المسلمين أن يتثبتوا مما يصلهم من أنباء قبل الرُّكون إليها والعمل بها : (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة ، لنغرينّك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلاّ قليلا)[1] ، وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا)[2] .

ومن حديث رسول الله صلىّ الله عليه وسلّم قوله : « استعينوا على قضاء الحاجات بالكتمان » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « رحمَ الله عبداً قال خيراً فغنم ، أو سكت فسلم » .

وقال الامام عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه : « سرُّك أسيرك ، فان تكلمت به صرت أسيره » .

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : « القلوب أوعية الأسرار ، والشفاه أقفالها ، والألسنة مفاتيحها ، فليحفظ كل امرىء مفتاح سره » .

---

(١) الآية الكريمة من سورة الأحزاب (٣٣ : ٦٠) .
(٢) الآية الكريمة من سورة الحجرات (٤٩ : ٦) .

هذا قليل من كثير مما ورد في كتمان السر من آيات قرآنية وأحاديث نبويّة وأقوال مأثورة ، وكلها تحثّ على الاستمساك بهذه الفضيلة ، وتحذر من العواقب الوخيمة التي تؤدي إليها إفشاء الأسرار .

إنّ السر أمانة ووديعة وعهد ، وما كان للمسلم أن يخون الأمانة ، أو يعبث بالوديعة ، أو ينقض العهد ، والله تعالى يقول : (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا)[1]

ويقول الحسن بن علي رضي الله عنه : « إن من الخيانة أن تتحدّث بسر أخيك » .

وإذا كان السر أمانة ووديعة وعهد في العلاقات الشخصية التي تضر بمصالح شخص أو أشخاص ، فان السر أمانة كبرى ووديعة عظمى وعهد وثيق في العلاقات الاجتماعية التي تضر بمصالح الجيش والأمة .

إن الذي يفشي أسرار جيشه وأمته ، مقصر أعظم التقصير في حق جيشه وحق أمته ، وليس له عذر يعتذر به أمام الله وأمام الناس .

---

(١) الآية الكريمة من سورة الإسراء (١٧ : ٣٤) .

أمثلة عن الكتمان

- ٤ -

والدروس العملية التي يستطيع المسلمون أن يتعلّموها من الرّسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام في (الكتمان) أكثر من أن تُعَدّ وتُحصى .

وسأقتصر على نماذج قليلة من الدروس العملية المستنبطة من غزوات النبي صلّى الله عليه وسلّم وسراياه ، حتى يعرف العسكريون المسلمون والمدنيون أيضاً كيف كان عليه الصّلاة والسّلام يعتمد أقصى درجات (الكتمان) في أعماله العسكرية ، فقد يكون في ذلك عبرة للعسكريين خاصة والمدنيين عامة .

فقد بعث النبي صلّى الله عليه وسلّم سرية من المهاجرين قوامها اثنا عشر رجلاً بقيادة عبد الله بن جحش الأسدي للقيام بواجبات استطلاعية .

وتوجّهت تلك السرية نحو هدفها في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مهاجرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ومع قائدها رسالة (مكتومة) أمره الرسول صلى الله عليه وسلّم ألاّ يفتحها إلاّ بعد يومين من مسيره ؛ فإذا فتحها وفهم ما فيها ، مضى في تنفيذها غير مستكره

أحداً من أفراد قوته على مرافقته .

كان مضمون تلك الرسالة (المكتومة): « إذا نظرت في كتابي هذا ، فامض حتى تنزل (نَخْلَة) بين مكة والطائف ، (فترصّد بها قريشاً) (وتعلم) لنا من أخبارهم »

وبعد يومين من مسير عبد الله بن جَحْش عن قاعدة المسلمين المدينة المنورة فضّ تلك الرسالة (المكتومة) ، وأطلع رجاله على كتاب النبي صلى الله عليه وسلّم ، وأخبرهم بأن النبي صلى الله عليه وسلّم نهاه أن يستكره أحداً منهم على مرافقته ؛ فلم يتخلّف رجل من رجاله[1] ، وسارعوا إلى تنفيذها فوراً .

لقد (ابتكر) الرّسول صلى الله عليه وسلّم أسلوب (الرّسائل المكتومة) ، للمحافظة على (الكتمان) الشديد ، ولحرمان أعداء المسلمين من الحصول على المعلومات التي تفيدهم عن حركات المسلمين وأهدافهم ، وبذلك أخفى نياته عن العدو والصديق .

لقد سبق المسلمون غيرهم في (ابتكار) هذا الاسلوب الدّقيق للكتمان ، قبل أن يفطن إليه (الألمان) ويستعملوه في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) .

وربما يكون للألمان عذرهم في انتحال (إبتكار)

---

(١) أنظر طبقات ابن سعد (٢ / ١٠) – بيروت – ١٣٧٦ .

« ١ »

أسلوب (الرّسائل المكتومة) لسبب أو لآخر ... وادعاؤهم بأنهم أوّل من فكّر في مثل تلك الرسائل ...

ولكن ، ما عذر المسلمين في مشايعة الألمان في ادعائهم هذا وزعمهم بأن الألمان هم أول مَنْ ابتكر هذا الأسلوب ؟

لقد نسي المسلمون تراثهم ، وأصبحوا يستوردون ما يكتبه الأجانب حتى في مجالات التراث العربي الاسلامي .

أثر الكتمان في المباغتة

- ٥ -

أ ـ وبلغ النبي صلىّ الله عليه وسلّم بعد شهرين من غزوة (أُحُد)[١]، أنّ طُلَيْحَةَ وسَلَمَةَ ابني خُوَيْلد يحرّضان قومهما بني (أسد) بن خزيمة لغزو المدينة المنورة ونهب أموال المسلمين فيها .

وقرّر النبي صلىّ الله عليه وسلّم إرسال دورية قتال بقوّة خمسين ومائة مسلماً من المهاجرين والأنصار بين راكب وراجل ، فيهم أبو عبيدة بن الجرّاح وسعد بن أبي

---

(١) كانت غزوة (أحد) في شوال من السنة الثالثة من الهجرة.

وقّاص رضي الله عنهما بقيادة سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه للقضاء على بني (أسد) قبل قيامهم بغزو المدينة المنوّرة ؛ وأمرهم النبي صلى الله عليه وسلّم بالسير (ليلاً) والاستخفاء (نهاراً) ، وسلوك طريق غير مطروقة ، حتى لا يطّلع أحد على أخبارهم ونياتهم . فباغتوا بذلك بني (أسد) في وقت لا يتوقّعونه .

وسار أبو سلمة (ليلاً) ، وكمن (نهاراً) ، حتى وصل إلى ديار بني (أسد) ، دون أن يعرفوا عن حركته إليهم شيئاً ؛ فأحاط بهم فجراً ، فلم يستطع المشركون الثبات ، ثم ولّوا الأدبار .

وأرسل أبو سلمة مفرزتين من قواته لمطاردتهم ؛ فعادتا بالغنائم[1] .

ب — وفي غزوة (دُومَة الجَنْدَل)[2] قاد النبي صلى الله عليه وسلّم ألف راكب وراجل من المهاجرين والأنصار لمنع القبائل البدوية التي تقطن (دُومَة الجندل) من قطع الطرق ونهب القوافل ، والقضاء على حشودها

---

(١) الرسول القائد (١٩٥ — ١٩٦) .

(٢) دومة الجندل : حصن على سبع مراحل من دمشق ، تقع بين دمشق والمدينة المنورة ، فيها حصن مبنى بالجندل ، لذلك سميت بدومة الجندل . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/١٠٦) — القاهرة — ١٣٢٣ هـ .

التي ترمع غزو المدينة المنورة .

وخرج الرسول صلى الله عليه وسلم بالمسلمين من المدينة المنورة في ربيع الأول من السنة الخامسة الهجرية . يكمن بهم (نهاراً) ويسير (ليلاً) .

وقد قطع المسلمون المسافة بين المدينة المنورة و (دومة الجندل) بخمس عشرة مرحلة ، فلما وصل إليها المسلمون فرّت القبائل خوفاً من لقائهم . كما فرّ أهل (دومة الجندل) ، فلم يجد المسلمون أحداً منهم .

وعاد المسلمون من (دومة الجندل) بعد أن أقاموا فيها بضعة أيام[1] .

ح — إنّ (كتمان) نيّات المسلمين بالمسير (ليلاً) ، هو الذي جعلهم ينتصرون على أعدائهم .

لقد كان التفوق العَدَدي والعُدَدي مع أعــداء المسلمين ، ولكن (الكتمان) هو الذي أدّى إلى انتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة باذن الله .

والدّرس الكبير القيّم الذي يمكن استنباطه ، هو (كتمان) حركة قواتنا من قواعدها إلى أهدافها عن العدو والامتناع عن نشر أخبارهـــا في الاذاعة والأذاعة المصورة[2]

(١) الرسول القائد (٢٠٤ — ٢٠٥) .
(٢) التلفزيون .

والصحف والمجلات وبكل وسائل الأعلام ، لأنّ أعداءنا لنا بالمرصاد ، فلا يجوز لنا ولا ينبغي أن نكشف لهم نيّاتنا ، مما يحملهم على إعداد الخطط اللاّزمة لاحباط حركاتنا العسكرية في المكان والزمان المناسبين .

الأثر الشخصي في الكتمان

-٦-

أ- وفي غزوة (الأحزاب)[١] التي كانت في شوّال من السنة الخامسة الهجرية ، علم النبي صلى الله عليه وسلّم ، أنّ بني (قُريظة) من يهود قد نكثوا عهدهم الذي كان بينهم وبين المسلمين ، وذلك بعد تطويق المدينة المنورة من عشرة آلاف مقاتل من قريش وغَطفان وأشْجَع وسُلَيم وبني أسد .

وتحرّج موقف المسلمين كثيراً – وكان عدد مقاتليهم ثلاثة آلاف مقاتل – بعد أن نكثت بني قريظة ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من المسلمين إلى بني قريظة ليتأكد من انضمام بني قريظة إلى الأحزاب ، وأمره أن (يلحن) بالقول حين يعود إليه ولا يُفْصِح في حالة

---

(١) غزوة الخندق .

نكث بني قريظة ، خوفاً على معنويات المسلمين من الانهيار ، وحتى يستكمل المسلمون إعداد (الخندق) وإكمال استعداداتهم العسكرية قبل أن ينتشر خبر بني قريظة بينهم .

وحين أكمل المسلمون ما أرادوه إعْدَاداً وعُدَداً ، أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلّم بما كان من أمر قريظة ؛ ليضعهم عند مسؤولياتهم الكاملة دفاعاً عن الاسلام .

ولو أنّ النبي صلىّ الله عليه وسلم ، سمع باذاعة نبأ نكث بني قريظة عهدها قبل أن يُعِدّ المسلمون كلّ متطلبات القتال ، لانهارت معنويات المسلمين لأنّ الخطر أصبح يهددهم من داخل المدينة المنورة وخارجها .

ب ـ وفي هذه الغزوة أيضاً ، جاء نُعَيْم بن مَسْعود الغَطَفاني إلى النبي صلىّ الله عليه وسلّم معلناً إسلامه ، وأخبره أنه أسلم ولا يعلم قومه باسلامه ، فقال له النبي صلىّ الله عليه وسلّم : « إنما أنت رجل واحد . فخذّل عنّا ما استطعت ، فانّ الحرب خدعة » .

وكتم النبي صلى الله عليه وسلّم إسلام نعيم ، فلم يعرف قومه ولا بنو قريظة عن اسلامه شيئاً .

وخرج نعيم حتى أتى بني قريظة ، وكان نديماً لهم في الجاهلية ، فقال لهم : « عرفتم ودي إيّاكم ، وقد ظاهرتم قريشاً وغطفان على حرب محمد ، وليسوا كأنتم : البلد

بلدكم به أموالكم. وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون أن تتحوّلوا منه. وإن قريشاً وغطفان إن رأوا نُهْزَةً[1] وغنيمة أصابوها. وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين محمد، ولا طاقة لكم به؛ فلا تقاتلوا حتّى تأخذوا منهم رُهُناً[2] من أشرافهم حتّى تناجزوا محمداً».

قال بنو قريظة: «أشرتَ بالنّصح. ولست عندنا بمتّهم»...

ثم خرج نعيم إلى قريش فقال لهم: «بلغني أن قريظة ندموا، وقد أرسلوا إلى محمد: هل يرضيك عنا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثمّ نكون معك على مَنْ بقي منهم؟! فأجابهم: أن نعم! فان طلبت قريظة منكم رُهُناً من رجالكم، فلا تدفعوا لهم رجلاً واحداً...».

وجاء نعيم غطفان فقال لهم: «أنتم أهلي وعشيرتي...» وقال لهم مثل ما قال لقريش وحذّرهم!!

وأرسل أبو سفيان بن حرب وسادة غطفان إلى بني قريظة عِكْرِمة بن أبي جَهل في نفر من قريش وغطفان

---

(١) النهزة: الفرصة.

(٢) الرهُن: جمع الرَّهْن، وهو ما وضع عندك لينوب مناب ما أخذ منك.

في ليلة سبت ، وطلبوا منهم الإستعداد للهجوم على المسلمين نهار السّبت ؛ ولكنّ قريظة اعتذروا بأنّهم لا يقاتلون يوم السّبت ... ثم طلبت قريظة رهائن من قريش وغطفان قبل أن تشرع بأيّ هجوم !!

قالت قريش وغطفان : « لقد صدق نعيم » .

ولما رُفِضَ طلبُ قريظة باعطائها رهائن من قريش وغطفان قالوا : « لقد صدق نعيم » ... !

وتفرّقت قلوب الأحزاب وزالت الثّقة بينهم[1] .

وعاد الأحزاب إلى مواطنهم دون أن يحقّقوا أهدافهم في القضاء على المسلمين .

لقد كانت للإشاعات التي بثّها نعيم لغرض تفريق كلمة الأحزاب ، أثر حاسم في معنويات قريش وحلفائها من القبائل العربية وبني قريظة .

والحرب الحديثة ، تعتمد على بثّ الاشاعات المثيرة لتصديع الصفوف وبلبلة الأفكار .

وقسم بث الاشاعات من أهم أقسام شعب الاستخبارات[2] العسكرية في تشكيلات الجيوش ومقراتها العليا .

---

(١) انظر التفاصيل في : الرسول القائد (٢٢٢ - ٢٢٣) .
(٢) المخابرات .

والسؤال الآن : لو لم يطبّق الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام أسلوب (الكتمان) الشديد ، ولو لم يطبّق نعيم هذا الاسلوب ، فهل كان بامكان نعيم أن يقوم بهذا الدور الحاسم في تفرقة صفوف الأحزاب ونزع الثقة من نفوسهم ؟!

الكتمان بالاسلوب

-٧-

أ ـ وفي غزوة بني (لِحْيان) الذين غدروا بدعاة المسلمين عند ماء (الرّجيع) . أراد النبي صلى الله عليه وسلّم معاقبتهم على فعلتهم .

كما علم النبي صلى الله عليه وسلم بمحاولة قريش التجمّع مع حلفائها لغزو المسلمين ، ففكر في الحركة إليهم ، للتأثير في معنويات قريش والقبائل الأخرى ، وللتعرّض ببني لحيان الذين غدروا بدعاة المسلمين .

وأظهر النبي صلّى الله عليه وسلّم ، أنّه يريد (الشّام) حتّى يستطيع مباغتة بني لحيان دون أن يعرفوا بحركته إليهم .

وتحرّك النبي صلّى الله عليه وسلّم بقواته شمالاً ، فلما اطمأن الى انتشار خبر حركته إلى الشمال باتجـــاه

(الشام) ، كرّ راجعاً باتجاه مكة المكرّمة جنوباً ، مسرعاً في حركته، حتى وصل إلى منازل بني (لحيان) بـ (غرّان)[1].

ولكنّ بني (لحيان) فرّوا إلى رؤوس الجبال ، واستطاعوا النّجاة بأرواحهم وأموالهم[2] .

لقد (كتم) النبيّ صلىّ الله عليه وسلّم اتجاه حركته ، فسار شمالاً ثم عاد جنوباً ، فكانت هذه الغزوة انتصاراً معنوياً للمسلمين على بني (لحيان) : والنصر المعنوي لا يقلّ أهمية عن النصر المادي .

ب ـ وفي غزوة (خيبر)[3] التي كانت في المحرم من السّنة السابعة الهجرية ، كان يهود (خيبر) قد حالفوا غطفان على أن تعاون غطفان يهود خيبر اذا داهمهم الخطر من المسلمين .

ولكي يحول النبي صلىّ الله عليه وسلّم بين تعاون غطفان ويهود (خيبر) في حرب المسلمين ، تحرّك بأصحابه إلى مواضع (الرّجيع) من أرض غطفان ، وبهذه الحركة استطاع النبي صلىّ الله عليه وسلّم ، إيهام غطفان بأن المسلمين يريدونهم ، وأن قوات المسلمين توشك أن

---

(١) غران : منازل بني لحيان ، وغران واد بين أمج وعسفان. وعسفان : موضع بين الجحفة ومكة المكرمة وهي من مكة المكرمة على مرحلتين. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ١٧٤) .

(٢) أنظر التفاصيل في الرسول القائد (٢٣٨ - ٢٣٩) .

(٣) خيبر : ناحية على ثمانية برد من المدينة المنورة لمن يريد الشام . أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ٤٩٥) .

تطوقهم وتقضي عليهم .

وعاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى (خيبر) . ولكنه بعث بمرزة من أصحابه لمباغتة ديار غطفان بعد أن تركتها قوات غطفان لمعاونة يهود (خيبر) .

ونجحت هذه المفرزة في إلقاء الرُّعب في ديار غطفان ، مما اضطر هذه القبيلة إلى الاسراع بالعودة إلى ديارها لحمايتها من تهديد المسلمين ، وتركت يهود (خيبر) وحدهم أمام المسلمين .

وهكذا نجحت خطة الرسول صلى الله عليه وسلّم في عزل يهود (خيبر) عن غطفان حلفائهم .

ولعلّ أهم عامل من عوامل انتصار المسلمين على يهود (خيبر) في هذه الغزوة ، هو عامل (الكتمان) ، الذي جعل غطفان يظنون أن النبي صلى الله عليه وسلّم يريدهم في غزوته .

دروس من غزوة الفتح

- ٨ -

أ ــ وفي غزوة فتح (مكة) المكرمة التي كانت في رمضان من السنة الثامنة الهجرية ، بلغ النبي صلى الله عليه وسلّم في تطبيق عامل (الكتمان) حدّ الرّوعة ، حتى ليمكن اعتبار هذه الغزوة مثالاً من أعظم أمثلة التاريخ

العسكري في تطبيق (الكتمان) إلى أبعد الحدود .

أمر النبي صلّى الله عليه وسلّم أصحابه بانجاز استعداداتهم للحركة ، وبعث إلى القبائل المسلمة مَن يخبرها بانجاز استعداداتهم للحركة أيضاً .

كما أمر أهله أن يجهّزوه ، ولكنه لم يخبر أحداً من المسلمين في الداخل أو الخارج بنياته وأهدافه من حركته واتجاهها .

بل أخفى نياته وأهدافه واتجاه حركته حتّى عن أقرب المقربين إليه ، ثم أرسل سرية أبي قتَادة الأنصاري إلى بطن (إضم) ليزيد من إسدال الستّار الكثيف على نياته وأهدافه الحقيقية .

دخل أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه إلى ابنته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وهي تُهيّيء جهاز النبي صلّى الله عليه وسلّم ، فقال لها : « أي بُنَيَّة ! أأمركم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن تجهّزوه ؟ » ، قالت : « نعم ، فتجهّز » ، قال : « فأين ترينه يريد ؟! » قالت : « والله لا أدري ! » .

ب — ولما اقترب موعد الحركة ، صرّح الرسول صلّى الله عليه وسلّم بأنه سائر إلى مكّة المكرمة ، ولكنه بثّ عيونه وأرصاده ليحول دون وصول أخبار اتجاه حركته إلى قريش .

بعث حاطبُ بن أبي بلتعة رسالة أعطاها امرأة متوجّهة إلى مكّة المكرمة ، أخبرهم في تلك الرّسالة بنيّات المسلمين في التوجّه إلى فتح مكة المكرمة .

وعلم النبي صلىّ الله عليه وسلّم بهذه الرسالة ، فبعثَ علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه والزبير بن العوّام رضي الله عنه ، ليدركا تلك المرأة التي تحمل تلك الرّسالة ، فأدركاها وأخذا الرسالة منها .

ودعا رسول الله صلىّ الله عليه وسلم حاطباً يسأله : « ما حملك على ذلك ؟! » .

قال حاطب : « يا رسول الله ! أما والله ، إني لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيّرت ولا بدّلت . ولكنني كنت امرءاً ليس له في القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم » !

وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه : « يا رسول الله ! دعني فلأضرب عنقه ، فانه قد نافق » .

وقال النبي صلىّ الله عليه وسلّم : « أما إنه قد صدقكم . وما يدريك ؟ لعلّ الله اطّلع على من شهد (بَدْراً) فقال : اعملوا ما شئتم » .

لقد شفع لحاطب ماضيه الحافل بالجهاد ، فعفا عنه

النبي صلىّ الله عليه وسلّم ، وأمر المسلمين أن يذكروه بأفضل ما فيه[1] .

ذلك هو مبلغ يقظة الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسّلام وحذره ، حرصاً على عدم تسرّب المعلومات عن المسلمين إلى المشركين ، تطبيقاً عملياً للكتمان الشديد .

وذلك هو مبلغ حرص الصحابة على الكتمان ، حتّى ليتقدم صحابي جليل مثل عمر الفاروق رضي الله عنه ، إلى الرسول صلى الله عليه وسلّم ، مستأذناً بقتل حاطب بن أبي بلتعة ، لأنه لم يحافظ على الكتمان الشديد .

جـ ـ لقد حرص النبي صلىّ الله عليه وسلّم أشدّ الحرص ، على ألاّ يكشف نياته ، عندما اعتزم الحركة لفتح مكة المكرمة ، وكـان سبيله إلى ذلك (الكتمان) الشديد .

لم يبح بنياته لأقرب أصحابه إلى نفسه وأعزهم عليه : أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

بل لم يبح بنياته تلك إلى أحب نسائه إليه وأقربهن إلى نفسه : عائشة أم المؤمنين بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

وبقيت نياته سراً مكتوماً حتّى أنجز هو وأنجز أصحابه

---

(١) الرسول القائد (٢٢٤ – ٢٢٥) .

جميع استعدادات الحركة ، وحتى وصل أمره الانذاري[1] إلى القبائل المسلمة خارج المدينة المنورة لانجاز الاستحضارات

ولكنه أباح بنياته في الحركة إلى مكة المكرمة قبيل خروجه من المدينة المنورة ، حيث لم يبق هناك مبرر للكتمان ، لأن الحركة أصبحت وشيكة الانطلاق ، ولأن الوقت اللازم لوصول المعلومات اللاّزمة عن حركته إلى مكة لم يكن متيسراً .

ومع ذلك فانه بث عيونه وأرصاده ودورياته ، لتحول دون تسرّب المعلومات عن حركته إلى قريش .

بثّ عيونه وأرصاده داخل المدينة المنورة ، ليقضي على احتمال لتسرب أخبار حركته من أهلها إلى قريش ؛ وقد رأيتَ كيف اطلع على إرسال حاطب بن أبي بلتعة برسالته إلى مكة المكرمة ، فاستطاع أن يحجز تلك الرسالة قبل أن تصل إلى مثابتها .

وبث دورياته الاستطلاعية داخل المدينة المنورة وخارجها ، ليمنع قريشاً من الحصول على المعلومات عن نيات المسلمين ، وليحرم المنافقين والموالين لقريش من

---

(١) الأمر الانذاري : تعبير عسكري ، يقصد به الأمر التمهيدي الذي يصدر (مبكراً) قبل إصدار الأوامر المفصلة ، لغرض إعطاء فكرة للقادة المرؤوسين عن الحركة المقبلة ، ولكي تنجز الاستحضارات اللازمة بكفاية لهذه الحركة .

ارسال تلك المعلومات إليها .

وبقي النبي صلى الله عليه وسلّم يقظاً كل اليقظة ، حتى وصل إلى ضواحي مكّة المكرمة ، فنجح أعظم النجاح بترتيباته الوقائية التي اتخذها لحرمان قريش وحلفائها من معرفة نيات المسلمين[1] .

فقد وصل جيش المسلمين (مَرّ الظهران) على مسافة أربعة فراسخ من مكّة المكرّمة ، فعسكر هناك .

وأمر النبي صلىّ الله عليه وسلّم ، أن يوقد كُلّ مسلم في جيشه ناراً ، حتى ترى قريش ضخامة جيش المسلمين دون أن تعرف هويّته ، فيؤثّر ذلك في معنوياتها وتستسلم للمسلمين دون قتال ، وبذلك يؤمّن النبي صلىّ الله عليه وسلّم خطته العسكرية في دخول مكة المكرمة دون إراقة الدّماء .

وأوقد عشرة آلاف مسلم نيرانهم ، ورأت قريش تلك النيران الكثيرة تملأ الأفق البعيد .

وأسرع أبو سفيان بن حرب وبُدَيل بن وَرْقاء الخزاعي وحكيم بن حزام بالخروج من مكّة المكرمة متّجهين نحو مصدر تلك النيران ، فلما اقتربوا من موضع معسكر المسلمين ، قال أبو سفيان لصاحبه بديل : « ما

---

(٢) الرسول القائد (٣٢٧ - ٣٢٨) .

رأيتُ كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً » .

وردّ بديل على أبي سفيان قائلاً : « هذه والله خزاعة حمشتها[1] الحرب » .

ولم يقتنع أبو سفيان بجواب بديل ، فقال : « خزاعة أقلّ وأذلّ من أن تكون هذه نيرانها »[2].

لقد كانت قريش تعرف حق المعرفة ، بأن المسلمين سيهاجمون مكة المكرمة ، ولكنها لم تكن تعرف متى وكيف وأين سيجري الهجوم المتوقّع .

والفضل في ذلك للكتمان الشديد الذي كان الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام لا يتخلّى عنه طرفة عين في القضايا العسكرية المصيريّة .

ذلك لأنّ نيات المسلمين في مهاجمة مكّة المكرمة وفتحها ، لو انكشفت لقريش في وقت مبكر ، لاستطاعت أن تحشد قواتها وقوات حلفائها ، ولأعدّت خطة عسكرية لاحباط هجوم المسلمين ، ولكان بامكانها مقاومة المسلمين أطول مدة ممكنة ، ولأوقعت بقوات النبي صلى الله عليه وسلّم خسائر في الأرواح والأموال دون مبرّر .

---

(١) حمش النّاس وغيرهم : جمعهم . وحمش فلاناً . هيجه وأغضبه . وحمش القوم : ساقهم بغضب .

(٢) الرسول القائد (٣٢٦) .

د ـ وكما (كتّم) النبي صلى الله عليه وسلّم نياته في غزو (مكّة) المكرمة ، وموعد حركته من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة .

فقد استطاع عليه الصلاة والسّلام ، أن (يكتّم) عدد قواته الزاحفة لفتح مكّة المكرّمة أيضاً .

كان العبّاس عمّ النبي صلىّ الله عليه وسلّم ، قد خرج من معسكر المسلمين في (مرّ الظّهْرَان) ـ ضاحية من ضواحي مكّة المكرّمة ـ ، وكان العباس على بغلة النبي صلىّ الله عليه وسلّم ، وكان هدفه من خروجه هو إخبار قريش بالجيش الضخم الذي جاء لقتالها والذي لا قِبَل لها به ، حتى يؤثّر في معنوياتها ويضطرها إلى الاستسلام دون قتال ، فيحقن بذلك دماءها ، ويؤمّن لها صلحاً شريفاً مع المسلمين ويخلّصها من معركة خاسرة لا يمكن أن تثيرها غير العصبية الجاهلية .

وفي طريقه إلى مكّة المكرمة ، سمع حديث أبي سفيان ابن حرب وبديل بن ورقاء ، فعرف العبّاس صوت أبي سفيان ، فناداه وأخبره بوصول جيش المسلمين ، ونصحه أن يلجأ إلى النبي صلىّ الله عليه وسلّم حتى ينظر في أمره قبل أن يدخل جيش المسلمين مكّة المكرمة صباح غد ، فيحيق به وبقومه العقاب .

واستجاب أبو سفيان لنصيحة العبّاس ...

أردف العباس أبا سفيان على بغلة النبي صلّى الله عليه وسلّم ، وتوجّها نحو معسكر المسلمين ؛ فلما وصل العبّاس المعسكر ودخله ، مرّ بنيران المسلمين في طريقه إلى خيمة النبي صلّى الله عليه وسلّم .

ورآه المسلمون ، فلم ينكروا شيئاً ، لأنهم عرفوا العبّاس . فلما مرّ العباس بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ عرف أبا سفيان ، وأدرك أنّ العبّاس يريد أن يُجيره .

وأسرع عمر بن الخطّاب رضي الله عنه إلى خيمة النبي صلى الله عليه وسلّم . فلما وصل إليها طلب من النبي صلى الله عليه وسلّم أن يأمره بضرب عنق أبي سفيان .

ولكنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم ؛ طلب من عمّه العبّاس رضي الله عنه ، أن يستصحب أبا سفيان إلى خيمته ، فاذا انقضى الليل أحضره صباح غدٍ .

فلما كان الصباح ، وجيء بأبي سفيان إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم ، أعلن أبو سفيان إسلامه ، فعفا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عنه وحقن دمه .

وقال العباس رضي الله عنه : « يا رسول الله ! إن أبا سفيان يحبّ هذا الفخر ، فاجعل له شيئاً » .

قال النبي صلّى الله عليه وسلّم : « نعم ! مَنْ دخل

دار أبي سفيان فهو آمِنٌ ، ومَن أغلقَ بابه فهو آمِنٌ ومَن دخل المسجد فهو آمِنٌ » .

وأراد النبي صلىّ الله عليه وسلم أن يستوثق من سير الأمور كما يحبّ بعيداً عن وقوع الحرب بين المسلمين وقريش ، فأوصى العبّاس رضي الله عنه باحتجاز أبي سفيان في مضيق الوادي الذي سيمر منه جيش المسلمين وشيكاً ، حتى يستعرض الجيش الزاحف كلّه ، فلا تبقى في نفسه أيّة فكرة للمقاومة .

قال العباس رضي الله عنه : « خرجت بأبي سفيان ، حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله صلىّ الله عليه وسلّم .

« ومرّتِ القبائل على راياتها : كلّما مرّت قبيلة قال : يا عبّاس ! مَنْ هؤلاء ؟! فأقول : سُلَيْم ! فيقول : مالي ولسُلَيم ؟! ثم تمر القبيلة، فيقول : يا عبّاس ! مَنْ هؤلاء ؟ ! فأقــول : مُزَيْنَة ! فيقول : مالي ولمزينة ؟! حتى نفدت القبائل، ما تمرّ قبيلة إلاّ سألني عنها ، فاذا أخبرته ، قال : مالي ولبني فلان ..... !

« حتى مرّ الرّسول صلىّ الله عليه وسلّم في كتيبته الخضراء ، وفيها المهاجرون والأنصار ، لا يُرَى منهم إلاّ الحدُق من الحديد ، فقال : سبحان الله ! يا عبّاس ! مَنْ هؤلاء ؟! قلت : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلّم

في المهاجرين والأنصار . قال : ما لأحدٍ بهؤلاء من قِبَل ولا طاقة ! والله يا أبا الفضل ! لقد أصبح ملكُ ابن أخيك الغَدَاةَ عظيماً ...

« قال العبَّاس : يا أبا سفيان ! إنّها النبوّة . قال : نعم إذن » .

عند ذاك قال العبَّاس رضي الله عنه لأبي سفيان : « النجاء إلى قومك ! » .

فأسرع أبو سفيان إلى مكة المكرّمة ، فدخلها مبهوراً مذعورا[1] .

هـ — ليس من السّهل أبداً ، أن يتحرّك جيش تَعْداده عشرة آلاف راكب وراجل ، مؤلف من كل القبائل العربية تقريباً ، من المدينة المنورة إلى مكة المكرّمة ؛ دون أن تعرف قريش ، ودون أن يعرف حلفاؤها ؛ وقت حركة هذا الجيش الاسلامي اللّجب ونياته وعَدَده وعُدَده ... حتّى يصل المسلمون الفاتحون إلى ضواحي مكة المكرمة ، فيفلت الأمر من قريش وحلفائها ولا يجدون أمامهم غير الاستسلام !

إن (كتمان) النبي صلّى الله عليه وسلّم نياته حتّى عن أقرب المقربين إليه ، وكتمان وقت حركته وتعداد

(١) الرسول القائد (٣٢٦ — ٣٢٨) .

جيشه وتنظيمه وتسليحه ، هو الذي أدّى إلى الفتح القريب .

إنّ دروس فتح مكّة ، في (الكتمان) الشديد ، يمكن أن تعتبر – كما قلتُ سابقاً – مثالاً رائعاً لمزايا التمسّك بأهداب (الكتمان) الشديد .

ولعلّ هذه الغزوة ودروسها في (الكتمان) ، تكون على رأس ما يدرّس في الكليّات العسكرية العربية والاسلامية وكليات الأركان ، من تاريخ الحرب ، ليعرف العسكريون العرب والمسلمون ، كيف كان النبي صلىّ الله عليه وسلّم في مجال (الكتمان) ، وكيف كان ينتصر على أعدائه لتطبيقه هذا العامل الحيوي من عوامل وضع مبدأ (المباغتة) في حيّز التنفيذ .

عوامل أخرى في الكتمان

– ٩ –

أ – ذلك هو جانب من جوانب عظمة الرسول صلىّ الله عليه وسلّم العسكرية ، وهو جانب تطبيق عامل (الكتمان) الشديد .

والعوامل العسكرية الأخرى التي طبّقها الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسّلام ، لا تقل روعة وجلالاً عن

تطبيقه عامل (الكتمان) .

إنّ حياة النبي صلىّ الله عليه وسلّم العسكرية مليئة بالعبر والعِظات . والدروس والحِكَم ، تستحق دراسة الدارسين وبحوث الباحثين .

لقد كانت تدابير النبي صلى الله عليه وسلّم في (الكتمان بالغة حدّاً رفيعاً ، حتّى ليمكن أن تكون أساليبه في (الكتمان) مثالاً يُحْتَذى في كل زمان ومكان .

كان له في المدينة عيون وأرصاد ، يطلعونه على كلّ صغيرة وكبيرة تضرّ بالمصلحة العامة في السلم والحرب على حد سواء .

كان حُذَيْفَة بن اليَمَان العبسي[1] رضي الله عنه صاحب سر رسول الله صلىّ الله عليه وسلّم في المنافقين لا يعلمهم أحد غيره[2] ، أي أنه كان كاتم سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم في حياته[3] ، اختاره دون غيره من أصحابه ، لتمتعه بمزايا (الكتمان) الشديد ، فلا يُفشي

---

(١) انظر تفاصيل سيرته في: قادة فتح بلاد فارس (١٠٨ – ١١٧) – بيروت – ١٣٨٥ هـ .

(٢) أسد الغابة (١/٣٩١) والاستيعاب (١/٢٥٠) وفتح الباري بشرح البخاري (٧/٧٢) .

(٣) كاتم السر : هو ضابط الاستخبارات (المخابرات) ، كما يعبر عنه العسكريون المحدثون .

سرّه لأحد ، وبحضور البديهة فلا يرتبك في المواقف الحرجة ، وبتقديره العميق لأهمّية صيانة المعلومات العسكرية عن الأعداء فلا يُفشي نيّاته ونيّات المسلمين وأهدافهم ، وبالذكاء الخارق وبموهبة حب الاستطلاع .

هذه المزايا ، هي مزايا كاتم السر المثالي ، وكان لها أثر في حياته كلها : كلما وجد أو سمع (خَبَراً) يؤثّر في مصير الاسلام والمسلمين ، (أخبر) به المسؤولين فوراً[1] .

ولم يكن حذيفة بن اليمان وحده يؤدي هذا الواجب ، بل كان من واجب كل مسلم أن يؤدي واجبه في مراقبة المشبوهين والمنحرفين والمنافقين وأعداء الاسلام والمسلمين .

سمع عُمَيْرُ بن سعد الأنصاري الأوسي[2] جلاّس ابن سُوَيد بن الصّامت[3] الذي تخلف عن غزوة (تبوك) يقول ما لا يليق بمسلم ، فرفع عمير ما قاله جلاّس إلى النبي صلىّ الله عليه وسلّم ، وكان عمير في كنف جلاّس الذي تزّوج أمّه بعد أبيه ، فقال عمير لجلاّس : « والله

(١) انظر التفاصيل في : قادة فتح بلاد فارس (١١٦) .
(٢) انظر سيرته في : قادة فتح العراق والجزيرة (٤٦٩-٤٧٥) - القاهرة - ١٩٦٤ .
(٣) انظر سيرته في الإصابة (١/ ٢٥٢) وأسد الغابة (١/ ٢٩٢) والاستيعاب (١/ ٢٦٤) . وأنظر مجمل سيرته في هامش : قادة فتح العراق والجزيرة (٤٦٩) .

يا جلاّس ! إنك لأحبّ الناس إليّ وأحسنهم عندي يداً ، وأعزّه عليّ أن يصيبه شيء يكرهه . ولقد قلتَ مقالة لئن رفعتُها عليك لأفضحنّك ، ولئن صمتُّ عليها ليهلكنّ ديني ، ولأحدهما أيسر عليّ من الأخرى » ، فحلف جلاّس لرسول الله صلىّ الله عليه وسلّم : « لقد كذب عليّ عمير ، وما قلتُ ما قال عمير بن سعد » ؛ فأنزل الله عزّ وجلّ فيه : (يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إسلامهم ، وهمّوا بما لم ينالوا ، وما نقموا إلاّ أن أغناهم الله ورسوله من فضله ؛ فإن يتوبوا يك خيراً لهم ، وإن يتولّوا يعذّبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة ، وما لهم في الأرض من وليّ ولا نصير)[1] ، فتاب جلاّس وحسنت توبته ، حتى عرف منه الخير والاسلام[2] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلّم لعمير بعد نزول تلك الآية الكريمة في تصديق ما قاله عن جلاّس : « وفَت أذنك يا غلام ، وصدّقك ربك »[3] .

لقد كان كل مسلم حق ، حارساً أميناً على الأسرار العسكرية وعلى كل مصالح المسلمين العليا .

---

(١) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩ — ٧٤) .
(٢) سيرة ابن هشام (٢/١٤١ ب ١٤٢) .
(٣) الاستيعاب (١٢١٦/٣) وأسد الغابة (٤/ ١٤٤) .

ب – وكما كان للنبي صلّى الله عليه وسلّم عيون وأرصاد داخل المدينة المنورة ، ليضمن بهم تماسك الجبهة الداخلية للمسلمين في قاعدتهم الأمينة (المدينة) ، وليحول دون انهيار حصونه من الداخل في المدينة المنورة .

كذلك كان له عيون وأرصاد خارج المدينة المنورة : في مكة المكرمة ، وفي القبائل العربية المعادية ، وفي أرض الرُّوم وبلاد فارس ، يخبرونه عن كلّ صغيرة وكبيرة تضرّ أو يمكن أن تضرّ بمصالح الاسلام والمسلمين العليا .

ذلك ما يفسّر لنا : أسباب انتصاره على أعدائه الكثيرين ، ذلك لأنه كان يطّلع على نيّاتهم العدوانية قبل وقت مبكر ، فيعمل من جانبه على إحباط ما يبيّتونه للاسلام والمسلمين من غدر وخيانة ودسائس ومؤامرات .

وذلك – أيضاً ، يفسّر لنا أسباب عدم استطاعة المشركين ويهود وأعداء المسلمين أن يباغتوا قوات النبي صلّى الله عليه وسلّم في الزمان والمكان والاسلوب ؛ بينما استطاع الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسّلام ، أن يباغت أعداء الدين الجديد في معظم غزواته وسراياه .

كانت عيونه وأرصاده خارج المدينة المنورة من المسلمين الذين يخفون اسلامهم ، أو من ذوي قرباه ورَحِمِه .

قبل غزوة (أحد) أرسل العباس عم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم رسالة يخبره بها عن وقت خروج قريش لقتاله

وعن عدد قوات قريش ، فأسرع حامل رسالة العبّاس رضي الله عنه بايصال تلك الرسالة إلى النبي صلى الله عليه وسلّم ، حتّى قطع المسافة بين مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة بثلاثة أيام ، فوجد النبي صلّى الله عليه وسلّم ماكثاً بمسجد (قُبَاء)[1] ، فدفع إليه بالرسالة[2] .

كما أخبر العباسُ وغيره من أهل مكة المكرّمة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، بكل حركات ونيات قريش وحلفائها .

وما يقال عن العباس وأهل مكة المكرمة ، يقال عن الكثيرين من النّاس ، الذين يعيشون بين القبائل العربية المعادية للمسلمين ، أو يعيشون في بلاد فارسَ وأرض الرُّوم .

ولست بحاجة إلى أن أذكر بأن الله سبحانه وتعالى كان مع النبي صلّى الله عليه وسلّم : يؤيّده بنصره ، ويمدّه بعونه .....

ولكنّ النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، كان بدوره يُعِدُّ كلّ متطلّبات النّصر ، حتّى يكون قدوة حسنة

---

(١) قباء : قرية على ميلين من المدينة المنورة ، على يسار القاصد الى مكة المكرمة . أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٢١) .

(٢) الرسول القائد (١٦٢) .

لأمته من بعده ، وحتى يطبّق عملياً كلّ آيات الجهاد[1] في الاسلام ومنها قوله تعالى : (وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، تُرهبون به عدوّ الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمون)[2] .

ولعلّ من أهم متطلّبات القتال ، هو (الكتمان) .

والقاعدة الذهبية المعروفة ، هي أن الأمة التي (تكتم) أسرارها الحربية ، هي الأمة التي يمكن أن تنتصر .

والأمة التي لا (تكتم) أسرارها الحربية ، هي الأمة التي لا يمكن أن تنتصر .

وما يقال عن الأمة يقال عن الأفراد ، لأن الأمة تتكون من أفراد ، والبناء الضخم يتكوّن من ذرّات .

والعسكريون خاصة ، مطالبون بأن يكونوا في ذروة (الكتمان) الشديد .

والمدنيون أيضاً ، مطالبون بأن يكونوا في ذروة (الكتمان) الشديد أيضاً ، لأنّ الجيش من الشعب ،

---

(١) ورد الجهاد في (٣٦) آية من آيات الذكر الحكيم . انظر التفاصيل في المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم (١٨٢ – ١٨٣) .

(٢) الآية الكريمة من سورة الأنفال (٨ – ٦٠) .

ونيات الجيش لا يمكن أن تخفى على الشعب .

والقادة يجب أن يكونوا نموذجاً رفيعاً في (الكتمان) .

والقائد الذي لا يتحلّى بمزية (الكتمان) يقود رجاله (حتماً) إلى الهاوية .

وإفشاء الأسرار الحربية خيانة بالنسبة للمدنيين والعسكريين على حد سواء .

وإفشاء تلك الأسرار خيانة عظمى بالنسبة للقادة العسكريين والقادة المدنيين أيضاً .

والذي لا (يكتّم) الأسرار العسكرية لأمته ، فانّ وجوده فيها من مصلحة أعداء أمته .

وكفى خزياً وعاراً لفرد في شعب يكون وجوده فيها ليس من مصلحة شعبه بل من مصلحة أعداء شعبه .

وَرُبَّ كلمة عابرة يحسبها المرء تافهة ، وهي في واقعها سراً عسكرياً يؤدي إفشاؤه إلى كارثة عسكرية .

وتاريخ الحروب خير شاهد ، وفيه عبر لمن اعتبر .

إنّ (الكتمان) في الاسلام (دين) ، حثّ عليه القرآن الكريم ، وأمر به النبي صلّى الله عليه وسلّم ، وطبّقه في كل حياته العسكرية .

وصدق رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام :

«من حُسْنِ اسلام المرء تركه مالا يعنيه».

وحسب المسلم الحق، أن يتأسّى بالنبي الكريم عليه أفضل الصلاة والسّلام، وإلاّ فهو مسلم جغرافي أو مدّع للاسلام أو متّهم بأنه مسلم والاسلام منه براء.

كيف نكتم الاسرار

-١٠-

والسؤال الآن: كيف نكتم أسرارنا العسكرية؟

والجواب على ذلك سهل يسير، ولكن العمل على وضعه في حيّز التنفيذ يحتاج إلى جهد كبير.

لقد أصبحت (الثرثرة) عادة مستحكمة في نفوس الكثيرين، وهي من جملة عيوبنا التي يجب أن نحاربها بلدون هوادة ورحمة.

والذين يقدّرون قيمة الحفاظ على الأسرار العسكرية، عليهم أن ينصحوا الذين يثرثرون بهذه الأسرار هنا وهناك ليشبعوا في نفوسهم رذيلة حب الظهور.

إنّ من واجب مَنْ يعرف للكتمان مزيته، أن يبادر إلى إسكات كل من يمسّ الأسرار العسكرية من بعيد أو قريب.

أما أن يستمع ويصغي مع الآخرين إلى إذاعة الأسرار العسكرية ، ثم لا يقول كلمة الحق صريحة حاسمة ، فهو شريك للمذيع في إفشاء تلك الأسرار .

كما يجب تدريب أفراد الجيش وضباطه على أرفع درجات (الكتمان) .

لقد كان من أسباب هزيمة العرب في حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، هو أن إسرائيل –كما صرّح قادتها ، استطاعت جمع أدق المعلومات العسكرية عن العرب من ناحية ، واستطاعت كتمان أسرارها العسكرية عن العرب من ناحية أخرى .

ومن الغريب جداً ، أن بعض أجهزة الاعلام العربية ، هيأت لاسرائيل معيناً لا ينضب من المعلومات عن الجيوش العربية وأسرارها التي كـــان من الواجب أن تكون في حرز حريز .

ليس من (الكتمان) في شيء ، نشر وإذاعة تنقلات القطعات العسكرية من مكان الى آخر .

وليس من (الكتمان) نشر وإذاعة شراء الأسلحة وكمياتها ومستودعاتها ونشر تصاويرها .

وليس من (الكتمان) نشر وإذاعة نياتنا وأهدافنا وما نريد عمله في الميدان .

والرجل الذي يريد القضاء على خصمه ، لا يمكن أن يقول له كل يوم : سأقضي عليك ... سأقتلك ... الخ ...

ومن المعقول ، بل من البديهي ، أن يكتم هذا الرجل نياته ، بل يتظاهر بعكس ما يريده لغرض تضليل خصمه .

فكيف إذا أراد شعب من الشعوب ، القضاء على خصمه دفاعاً عن الحق المغتصب ، أن يقول له بمناسبة وبغير مناسبة علناً : سأقضي عليك ... سأفعل فيك الأفاعيل ؟! ...

يجب أن يكون شعار كل فرد من العرب ... ومن المسلمين : لا أسمع ... لا أرى ... لا أتكلم ...

ويجب أن يكون شعار الشعب العربي والأمة الاسلامية : لا أسمع ... لا أرى ... لا أتكلم ...

إنّ الظروف الراهنة تحتم علينا جميعاً الالتزام بالكتمان الصارم .

وقد رأينا كيف هيأ الالتزام بالكتمان للمسلمين الأولين النصر المؤزر .

فهل نعتبر بدروس الكتمان التي طبقها الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام قبل أربعة عشر قرناً ، أم لا نزال بحاجة الى النكسات والنكبات ؟

الخاتمة

إذا كان (الكتمان) واجباً في الأمم ، يلتزم به كل فرد من الأفراد ، فإن (الكتمان) في الاسلام دين يلتزم به كل مسلم صحيح الإيمان .

والمسلم الحق كتوم ، لأنه يعمل بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « قل خيراً أو فاسكت » .

وإذا كان (الكتمان) في الحروب القديمة ضروري للجيوش ، فإن (الكتمان) في الحروب الحديثة أكثر من ضروري ، نظراً لاختراع أجهزة التصنت والوسائل العلمية المذهلة لجمع المعلومات .

الأجهزة اللاسلكية تنقل المعلومات الى العدو بسرعة خاطفة .

وهناك طائرات تجسس تطير بدون طيار ، وهناك غواصات تجسس تسير بالطاقة الذرية .

وهناك أجهزة إصغاء تنقل الهمس داخل الجدران الى العدو بسهولة ويسر .

ولعل الذي قال : « للجدران آذان » قد نظر من وراء الغيب الى أجهزة التجسس الألكترونية وأثرها في نقل المعلومات الى العدو بسرعة خاطفة .

يجب أن نتعلم (الكتمان) ونلقنه أولادنا ونساءنا ، حتى يصبح طبيعة في نفوسنا . فذلك وحده يفوّت على العدو أهدافه التجسسية .

إنّ لدينا كلاماً كثيراً نستطيع قضاء الوقت فيه بدون التطرّق الى القضايا العسكرية .

فحرام علينا أن نلهو بالأسرار العسكرية فنتيح للعدو فرصة اقتناصها والعبث بمصائرنا .

والحمد لله أعظم الحمد ، وصلى الله على سيدي ومولاي رسول الله وعلى آله وأصحابه أجمعين .